عبد الواحد إسماعيل القاضي

حركة تحرير المرأة في مصر

دراسة علمية .. بمفهوم إسلامي

دار الاعتصام

دار الإعتصام
٨ شــارع حســين حجــازى ـ تليفون ٣١٧٤٨/٢٦٠٣١ ـ ص.ب ٤٧٠ ـ القــاهـرة
للطبـع والنشـر والتـوزيع

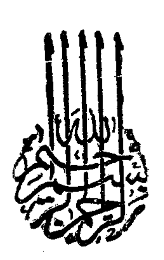
عبد الواحد إسماعيل القاضي

حركة تحرير المرأة في مصر

دراسة علمية .. بمفهوم إسلامي

دار الاعتصام


حركة تحرير المرأة في مصر



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

لأنى ابتغى بهذا البحث وجه الله العلى القدير وحده .. ولأنى أحاول به حسم واحدة من أهم وأخطر المشاكل التى ترهق مجتمعنا وهى مشكلة علاقة الرجل بالمرأة . أو ما يسمونه حرية المرأة . فقد حرصت على أن يكون نسيجه كله من الحقائق . الحقائق التاريخية والحقائق الدينية والحقائق العلمية .

فنحن أولا شعب أرهق التاريخ ولا يزال عبر خمسة آلاف سنة تزيد ولا تنقص . وطالما كان التاريخ يلهث وراء أحداثه حتى لا يضل عنه شىء منها . وفى تاريخنا حقائق كثيرة يمكن أن يستخلص منها الباحث ما يحتاجه فى شتى فروع المعرفة .

ونحن ثانيا شعب متدين استطاع بايمانه بالله الواحد وبالتزامه بأحكام عقيدته أن يقيم أعظم حضارة عرفها التاريخ القديم . ثم استطاع بعد دخوله الاسلام أن ينهض من كبوته وأن يبدع أعظم حضارة عرفها التاريخ الوسيط . وما استطاع فى يوم من الأيام بعيدا عن السلوك الدينى القويم أن يكون الا تابعا شقيا بظلم متبوعيه وقسوتهم عليه .

كذلك فان مجتمعنا المعاصر حافل بالحقائق التى يجب أن يكون

لها دور فى صياغة مفاهيمنـــا ورســـم سلوكنا وتخطيط حاضرنا ومستقبلنا . من هذه الحقائق على سبيل المثال :

أولا : ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بمنجزاتها الضخمة التى يتقدمها تحقيق الاستقلال السياسى والاقتصادى . وتحقيق الاستقلال السياسى انجاز لا يعرف قدر عظمته الا من درس تاريخ الشعب المصرى وتتبع مسيرة نضاله العنيد عبر ثلاثة آلاف عام ضد الغزاة والطغــــاة .

والاستقلال الاقتصادى انجاز رائع لأنه يرمز الى الشـــمول والاحاطة فى فكر الثورة الذى لم ينقل عن الفكر الغربى نقلا جامدا . بل درس وتعمق واستوعب ثم أبدع فكرا جديدا وأصولا جـــديدة تحترم العقيدة الاسلامية والملكية الفردية . ولا تؤمن بالعنف فى حل التناقضات الاجتماعية ثم هى حرب على الفقر والاستغلال .

ثانيا : هذه الحروب الشعواء التى تشــــنها الامبرياليـــة والصهيونية على الاسلام والمسلمين عاملة على خلق أجيال من أبناء المسلمين تجهل خصائص الأسلام وأحكامه وتتنكر لهـــا . حرب خبيثة بدأت منذ دنست أقــدام الاســـتعمار أرض الوطن العربى فى شكل حروب صليبية فى العصر الوسيط وما زالت مستعرة الأوار الى يومنا هذا . ولقد نجح الاستعمار فى خلق أفراد كثيرة ولا أقول أجيالا تجهل الاسلام وتتنكر لأحكامه ومبادئه .

ثالثا : طاقات شعبنا الهائلة ومنطلقاتها التى تكمن فى تحقيق العدل بمفهومه الاسلامى الذى لا يترك ثغرة للمظـــــالم وليس بمفهومه الغربى المتغــير تغير الأهواء . والحرية التى لا تشــوبها شائبة من تسلط أو قهر . والمساواة التى لا تفاضل بين الناس الا بقدر ولائهم لعملهم ووطنهم .

وفى اعتقادى أن اعادة تنظيم المجتمع المصرى قــد أصبحت ضرورة وطنية . وان هذا التنظيم يجب ان يتم فى اطـــار مبادىء ثلاثة :

أولهـــا : أن الشعب المصرى شعب متدين وأن الاسلام دين الدولة الرسمى . فلا ينبغى أن يكون فى ســـلوك أى مسئول ما يتناقض مع هذه الحقيقة .

ثانيهـــا : أن الشعب المصرى جزء من الأمة العربية بل هو قـــائد هذه الأمة ورائدها فلا يجوز أن تستخدم أجهزة الاعـــلام والتثقيف لغتنا العـــامية . بـــل يجب أن تكون العربية الفصحى لغة الكلمة المكتوبة والمسموعة .

ثالثهـــا : أن الشعب المصرى شعب أفريقى يقف حارسا مسئولا عن الباب الشمالى الشرقى لأفريقيا . فلا يليق بنا أن نحول بلدنا الى قطعة من أوروبا فى تبرجها وانحلال شبابها .

ومن البديهى أن اعادة تنظيم المجتمع يجب أن تبدأ بالأسرة التى تعتبر الخلية الأولى للمجتمع . وبالتالى فان مشروع اصلاح الأسرة يجب أن يبدأ باعادة النظر فى الدور الذى تقوم به المرأة المصرية حاليا. وهو الدور الذى أشركها مع الرجل فى عمله والذى كان هـــدفا هاما وأساسيا بين أهداف حركة تحرير المرأة فى مصر .

وهذه الدراسة تهتم بمتابعة حركة التحرير تلك سواء من حيث نشأتها ومفهومها كما تهتم ببيان النتائج المتوقعة لجهودها على ضوء ما وصلت اليها حركة تحرير المرأة فى البلاد الغربية . والله ولى التوفيق ... (١) .

عبد الواحد اسماعيل القاضى

---

(١) هذا الكتاب فرغت منه عام ١٩٧٤ .

الفصل الأول

حركة تحرير المرأة

فى عام ١٧٩٢ حين كانت الثورة الفرنسية تجتاز أخطر مراحلها نشرت سيدة انجليزية اسمها مارى ولستون كرافت كتابا عن حقوق المرأة اسمه A Vindication of the Rights of Women ويعتبر هذا الكتاب أول إثارة لموضوع حقوق المرأة فى انجلترا وربما فى العالم كله . غير أن دعوة المطالبة بحقوق المرأة كانت بطيئة الحركة خفيضة الصوت حتى منتصف القرن التاسع عشر حين نجحت فى كسب تأييد بعض أعضاء مجلس العموم وتحريضهم على اثارة موضوع حقوق المرأة فى المجلس . ومع أنه لم يصل الى قرار لمصلحة القضية الا أن مجرد اثارته فى ذلك المجلس كان دفعة قوية لها لأن أصحابها واصلوا نشاطهم بحماس حتى صدمهم جلادستون رئيس الحكومة بعبارته المشهورة « المرأة ستكون عبئا ثقيلا على ميزانية الدولة . "Women would overweight the Bill")

وفى الولايات المتحدة الأمريكية بدأت حركة المطالبة بحقوق المرأة فى عام ١٨٣٢ وفى ١٨٤٨/٧/١٩ اجتمع أول مؤتمر للدفاع عن حقوق المرأة . ويعتبره الأمريكيون أول مؤتمر من نوعه فى التاريخ كما يعتبرونه بداية الحركة النسائية فى العالم . ومنذ ذلك التاريخ نشطت حركة تكوين النوادى والجمعيات النسائية حتى بلغ عددها فى عام ١٨٩٠ خمسة عشر الف ناد . وكانت الحركة تستهدف اعداد المرأة لتؤدى دورها فى مختلف مجالات الحياة

عندما تنتهى التغييرات الاقتصادية فى العـــالم الى ازالة كثير من الأعمال المنزلية .

وأطرد نمو حركة المطالبة بحقوق المرأة حتى حققت أهدافها فى كل من انجلترا والولايات المتحدة الأمريكية . فبعد الحرب العالميـة الأولى وفى عام ١٩١٨ بالذات منحت المرأة فى انجلترا حقوقهـــا السياسية . ومنحت فى العام التالى حق العمل والتعيين فى مختلف وظائف الدولة . أما فى أمريكا فقد كانت التشريعات المنظمة لحقوق المرأة تلاحق زميلاتها فى أنجلترا . ففى عام ١٩٢٠ حصلت المـرأة الأمريكية على الحقوق السياسية وفى عام ١٩٤٢ تمت مساواتهـا بالرجل فى كل مجـالات العمل « انظـر الجـزء ٢٣ ص ٧٠٤ من الانسيكلوبيديا البريطانية » (١) .

أما فى مصر فقد أنشىء اتحاد نسائى لأول مرة عام ١٩٢٣ ليتصدى للعادات والتقاليد والأفكار الرجعية التى تضعف جهـود المرأة وسعيها فى سبيل التحرر من تسلط الرجل واستبداده بها (٢). وكانت السيدة هدى شعراوى هى صاحبة الفضل فى انشاء هـذا الاتحاد . ذلك أن ثورة عام ١٩١٩ كانت فرصة طيبة لتجمع نسائى تؤدى فيه المرأة واجبها الوطنى جنبا الى جنب مع سائر فئـات

---

(١) نشرت الأهرام فى صفحة المرأة بتاريخ ١٩٨٠/١١/٢٩ أن مدام دوبان التى كانت صاحبة أشهر صالونات الأدب فى القرن الثامن عشر بفرنسا نادت فى عام ١٧٤٠ بضرورة حصول المرأة على حريتها وتحقيق المساواة بينها وبين الرجل — وقد خلفت هـذه السيدة مخطوطات تؤكد هذه المعلومة وكان جان جاك روسو يعمل سكرتيرا لها فى ذلك الوقت .

(٢) نسترعى نظر القارىء الى أن هذه الكلمات ليست من انشائنا وهى تعبير عن وجهة نظر مؤسسات الاتحاد النسائى .

الشعب . وفى ١٦ مارس ١٩٢٣ عقد فى بيت هدى شعراوى اجتماع لقيادات ذلك التجمع النسائى الوطنى . وتمخض ذلك الاجتماع عن مولد الاتحاد النسائى الذى كان من أهدافه الدفاع عن حقوق المرأة وربط حركة تحرير المرأة فى مصر بحركة التحرير العالمية للمرأة .
وتقول بهيجة عرفة المتخرجة فى الجامعة الامريكية فى كتابها :
"The Social Activities of the Egyptian Feminist Union"
ان أهداف الاتحاد النسائى فى ذلك الوقت كانت تسعة أهداف هى :

١ — رفع المستوى الثقافى للمرأة المصرية لتحقيق مساواتها بالرجل سياسيا واجتماعيا .

٢ — العمل على تمكين الفتاة من مواصلة تعليمها فى مختلف الكليات والمعاهد العليا .

٣ — تغيير تقاليد الزواج التى تسلب الفتاة حريتها فى اختيار شريك حياتها .

٤ — ادخال التعديلات اللازمة على أحكام الطلاق والزواج لحماية المرأة من ظلم الرجل .

٥ — العمل على اصدار قانون بعدم زواج الفتى قبل الثامنة عشرة والفتاة قبل السادسة عشرة .

٦ — تنظيم الدعاية والاعلام اللازمين لتنشيط وتقوية حركة الاتحاد .

٧ — الدعوة الى التمسك بالفضيلة ومحاربة الرذيلة .

٨ — محاربة العادات والتقاليد والأفكار التى لا يقبلها عقل .

٩ — الاستعانة بالصحافة فى نشر مبادىء الاتحاد وأهدافه .

وتقول بهيجة عرفة أيضا أن الصحافة العربية لم

تتعاون مع الاتحاد النسائى فى أول الأمر لأن أصـــــحاب الصحف والمحررين كانوا يخشون الغالبية العظمى من المصريين الذين كانوا يعارضون مساواة الرجل والمرأة فى الحقوق والواجبات . الأمر الذى دفع بالاتحاد النسائى الى الاستعانة بالصحافة الغربية والى انشاء صحيفة تخدم أهدافه .

ومما يلفت النظر أن الاتحاد لم يصدر صحيفة عربية يقرأها الشعب ويفهم موضوعاتها . بل أصدر مجلة تحرر باللغة الفرنسية أسماها L'Egyptienne أى « المصرية » تصدر مرة كل أسبوعين وكانت تديرها وتحرر موضوعاتها السيدة سيزا نبراوى سكرتيرة الاتحاد . وفى عام ١٩٣٧ قام الاتحاد بإصدار مجلة عربية أسبوعية أسماها « المصرية » كانت تحررها فى أول الأمر السيدة فاطمة نعمت راشد ثم السيدة هـــــدى شعراوى ثم حـــــواء حبيب المصرى . وبعد أربع أو خمس سنوات توقف إصدار المجلتين بسبب عدم الاقبال على قراءتهما .

ولقد اطلعت على محاضرة للسيدة هدى شعراوى ألقتهـــا يوم الجمعة ١٩٣٥/١١/١٥ فى قاعة يورت التذكارية بدار الجامعة الأمريكية بالقاهرة يفهم منها أن حركة تحرير المرأة فى مصر بدأت فى وقت مبكر جدا . وبالتحديد فى عهد الخديو اسماعيل — وتقـــول السيدة هدى شعراوى مؤسسة الاتحاد النسائى وأول رئيســـة له فى محاضرتها تلك ما يأتى :

« ولم يكتف الخديو اسماعيل بفتح المدارس لتعليم بنـــات الشعب بل دفعه حبه فى الترقى السريع الى النهوض بكل الطبقات فأراد لنشر الروح العصرية بين الطبقة الراقية أن يكون مجموعة مثقفة من نساء قصره لتكون نواة لبيئة راقية مفكرة . فأمر باعطاء دروس فى مختلف العلوم والفنون لبعض الجوارى البيض فى قصره فنبغ منهن عدد عظيم فى الأدب التركى والشعر وفن التمثيل والموسيقى

والرياضة البدنية . فتكون منهن فرق للتمثيل كانت تقوم بتمثيل أدوار أخلاقية واجتماعية هزلية . كما تكونت فرق أخرى للموسيقى كانت تظهر فى المواسم والأعياد وفى كل مناسبة بملابس عسكرية مختلفة . تمنح أفرادها الألقاب والأوسمة بمقدار كفاءة كل منهن . وظهر من بينهن فضليات فى الشعر والأدب . عرفت منهن حرم راتب باشا السردار التى كان لها باع فى الشعر التركى . وقد هيأت هذه المجموعة المثقفة جوا زاهرا تجلت فيه روح جديدة وذوق سليم . ولما أنشأ دار الأوبرا خصص لهن فيها أمكنة اعترافا منه بحق المرأة فى الترويح عن نفسها والاستفادة من عظة التمثيل . ولما كان جل قصده نشر التمدين والذوق السليم بين الأسر المصرية زوج هؤلاء الجوارى المهذبات الراقيات بعض رجال بلاطه ووجهاء بلده منعما على كل منهن بما يتناسب ومركز زوجها من مال وعقار وحلى وخدم .

« وبالرغم من أن هذه الطريقة قد حرمت كثيرا من بنات العائلات المصرية من مراكز الزوجية التى شغلتها تلك الشركسيات فى بيوت الأمراء والوجهاء . فقد كان لتلك السيدات فضل عظيم فى تمدين بيوتات كثيرة وتنظيمها والعناية بتربية النشء فيها . وظهر أثر ذلك فى الجيل الحاضر والجيل المنصرم .

« ولولا أن الخديو اسماعيل خشى من أن يحدث تطور المرأة السريع ضجة ومقاومة من رجال الدين فى ذلك الوقت لأعطى المرأة المصرية فى عهده حرية تفوق الحرية التى تتمتع بها الآن . ولنهضت البلاد الى الدرجة التى كان يصبو اليها من رقى وتمدين » (١) .

ثم تقول فى مكان آخر من محاضرتها :

« وعززت هذه الحركة — تقصد حركة التفاف علماء الأزهر

---

(١) تعبير رجال الدين غير اسلامى يقابله فى الاسلام تعبير علماء الاسلام .

وطلابه حول جمال الدين الأفغاني ــ اميرة جليلة من اميرات الأسرة المالكة المغفور لها نازلي هانم فاضل . وكانت على جانب عظيم من الثقافة الغربية والشجاعة الأدبية . فجعلت بيتها كعبة رجـــال الأدب ، والفضل ومنتدى السياسيين من العظماء وكان رأيها بين الآراء المثل الأعلى في السداد والحكمة . وقيل انه كان لهذه الأميرة أثر عظيم في توجيه نصير المرأة قاسم أمين بك الى وضع كتـــابه « تحرير المرأة » مناقضا بذلك نفسه فيما كتبه عن المرأة في رده على الدوق داركور . وهنا أستأذن الدكتور فارس نمر في سرد حديث أفضى به الى في هذا الموضوع وهو لمـــا ظهر كتـــاب قاسم أمين بالفرنسية ردا على كتاب الدوق داركور « مصر والمصريين » الذى ندد فيه على عادات المصريين واستبدادهم بنسائهم أنبرى الدكتور نمر لنقده في جريدة المقطم فساء ذلك أصدقاء قاسم أمين وزملاءه وفي مقدمتهم الشيخ محمد عبده فشـــكوه للأميرة نازلي وكان من المترددين على ناديها فعاتبته على نقده رعاية لمركز القضاء الذى كان يشغله قاسم فأثارها بعض الحاضرين ضده بقوله : لو أطلعت الأميرة على ما دونه قاسم في رده المذكور لشكرت للدكتور نمر نقده . فان قاسم يندد بالمرأة التى تقابل الرجال سافرة . فثـــارت الأميرة واشتد غضبها حينما اطلعت بنفسها على صدق قوله في الكتاب الذى أحضروه أليها للتثبت من هذا القول . وانحت باللائمة على الشيخ محمد عبده وأصحابه الذين توسلوا اليها ليكف المقطم عن نقده لهذا الكتاب فاعتذروا لها عن قاسم واستأذنوها في أن يحضر أمامها ليدافع عن نفسه ويؤكد لها أنه ما كان يقصدها في دفاعه عن تقاليد بلاده . فأذنت ولما تشرف قاسم بمعرفتها وتردد على رحابها عرف مقدار السيدة المثقفة وأثرها الطيب في تهذيب المجتمع . ولذلك غير رأيه وكتب كتابه « تحرير المرأة » الذى كان فتحا جديدا لحرية المرأة ونيل حقوقها » .

وفي مـــكان آخر من محاضرتها تلك تقول السيدة هـــدى شعراوى أيضا :

« أما المظاهر الملموسة لتلك النهضة — ومعظمها نتيجة مجهودات الاتحاد النسائي المصرى فتتجلى :

أولا — فى مساواة البنت للولد فى جميع أدوار التعليم وفى البعثات العلمية الأوربية . وقد أظهرت بناتنا تفوقا محمودا فى الامتحانات العامة حتى تخرج منهن عدد ليس بالقليل فى هذه المدة القصيرة . والاحصائية التى استقيناها من مصادرها والتى سأسردها عليكم تؤيد قولى .

ثانيا — قانون يمنع زواج البنت قبل السادسة عشرة من عمرها . وفى ذلك فرصة لنمو جسمها وعقلها وتمكينها من التعليم واعدادها للأمومة الصالحة .

ثالثا — مد أمد الحضانة رحمة بالطفل الذى هو أحوج الى رعاية أمه منه الى رعاية أبيه .

رابعا — تخفيف فوضى الطلاق واجابة الزوجة فى طلبه اذا كان لديها أسباب معقولة .

خامسا — القضاء على البغاء ويسرنا أن لنا أنصارا كثيرين فى هذا المطلب الخلقى الانسانى ولنا رجاء فى تحقيقه عما قريب .

سادسا — حماية المرأة العاملة وانصافها فى ساعات العمل . ومراعاة ظروفها الطبيعية . ويسرنا أيضا أن حكومتنا لم تبخس من حق المرأة فى القانون الذى سنته لهذا الغرض كما نغتبط بقرار وزارة المعارف الذى أنصف المعلمات فأباح زواجهن مع استمرارهن فى العمل . وقد رفع الاتحاد النسائى فى هذا العام عقب عودة وفده من مؤتمر استانبول للوزارة طلبين :

الأول — سن قانون يقيد تعدد الزوجات .

والثانى — منح المرأة الحقوق السياسية فى الانتخابات والنيابة أسوة بالرجل . واذا كان الاتحاد النسائى قد توانى فى الطلب الأخير فلأن المرأة لم تكن فى الماضى مستعدة للقيام بأعباء هذا الحق وأن كان بين الرجال الذين منحوا هذا الحق من ليسوا أكفأ منها » .

ثم تختتم السيدة هدى شعراوى محاضرتتها قائلة :

« يستنتج مما تقدم أن المرأة الشرقية لم تنل شيئا من حقوقها الا عقب كل نهضة وطنية أو حركة فكرية لمعاونتها للرجل فيهما حيث تظهر فى غضون ذلك التعاون قوتها الكامنة وتتجلى مواهبها الفطرية التى يجهلها الرجل متأثرا بصورة المرأة المشوهة التى طبعتها فى وهمه العصور المظلمة والتقاليد الجائرة . كما تحققنا أن كل أمة تشارك المرأة فيها الرجل اشتراكا عمليا هى أكثر الأمم نشاطا وانتاجا لاستغلال نصفها الذى كان مشلولا . ولما للمرأة من أثر فى بث روح الحماسة والغيرة بين أفراد الأمة » .

ان هذه المحاضرة تعتبر بحق وثيقة تاريخية هامة لكل باحث فى حركة الدعوة الى تحرير المرأة المصرية . ولعل من أهم الحقائق التى سجلتها ما يلى :

١ — أن الأصل فى الدعوة الى تحرير المرأة فى مصر هو أولئك النسوة الشركسيات اللائى خرجن من سجن الحريم بقصر الخديو اسماعيل الى قصور وبيوت الأمراء والعظماء ليكن زوجات لهم .

٢ — ان قاسم أمين الذى يعتبره بعض المؤرخين أول من حمل لواء تحرير المرأة لم يكن سوى واحد ممن استعانت بهم الأميرة نازلى فاضل فى خدمة القضية التى كرست لها وقتها وجهدها ومالها . قضية بنات جنسها من الشركسيات اللائى يعشن وراء قضبان الحرملك . وأن كتابيه عن تحرير المرأة اللذين ألفهما بتحريض وتشجيع تلك الأميرة لا يعبران عن رأيه الشخصى ذلك الرأى الذى يعبر عنه فى صدق كتابه فى الرد على الدوق داركور .

٣ ــ ان المرأة كانت المحور الذى دارت حوله فكرة النهوض بالشعب المصرى . وأن الخديو اسماعيل لم يفكر فى النهوض بالشعب عن طريق تنمية موارده فى الزراعة والصناعة ونشر التعليم بين أبنائه . واذا جمعنا بين هذا المفهوم وبين رغبة الخديو فى ان يجعل مصر قطعة من أوربا لتكشف لنا ان صورة المرأة الغربية المتبرجة المتأنقة كانت غالبة على فكره هو وأفراد أسرته وغيرهم ممن سافروا الى أوربا .

٤ ــ ان قوة المرأة الكامنة ومواهبها الفطرية تتجلى فى الحركات الوطنية . وتلك حقيقة يشهد بها التاريخ ونعترف بها .

٥ ــ ان هدف حركة تحرير المرأة فى مصر هو مشاركة الرجل مشاركة عملية حتى لا يظل نصف الأمة مشلولا .

ولقد حقق الاتحاد النسائى بفضل تحركه الواعى النشط كثيرا من أهدافه فلما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ تحقق لحركة تحرير المرأة فى مصر كل أهدافها . وحسبها نجاحا تلك الفقرة التى وردت فى الباب السابع من الميثاق والتى تقول :

« ان المرأة لابد أن تتساوى بالرجل ولا بد أن تسقط بقايا الأغلال التى تعوق حركتها الحرة حتى تستطيع أن تشارك بعمق وايجابية فى صنع الحياة » .

ولكن طموح حركة تحرير المرأة المصرية بغير حدود . ولذلك نراها بالوعى وبعد النظر لا تكتفى بتجميع النساء حولها وبث مفاهيم التحرير فى نفوس المثقفات خاصة بل تعمل على الاستنصار بالرجال واجتذابهم الى ساحة نشاطها وميدان نضالها . واغلب ظنى أنها قد وجدت طريقها اليهم ممهدأ فقد ناصرها كثيرون وأيدها كثيرون . ولعل أخطر أنصارها هم هؤلاء الذين درسوا علوم الاجتماع واحتلوا

الكثير من مواقع العمل الهامة والمؤثرة . انهم يسخرون ابحاثهم فى خدمة أهداف حركة تحرير المرأة ويذهبون فى المطالبة لها بكل ما تسعى الى تحقيقه مذاهب لا تخلو من التطرف والطرافة أحيانا . ومثال ذلك تلك الدراسة التى نشرتها جريدة الأهرام يوم ١٩٧١/٢/٨ لواحد منهم تحت عنوان « نظرة الى المرأة المصرية المعاصرة » يقول فيها :

« واذا كان المجتمع المصرى قد جرب سيادة معظم الأدوار الاجتماعية التى يؤديها الذكور وتميزها على الأدوار الاجتماعية التى تؤديها الاناث فى فترة من الزمان فقد آن الأوان فى الوقت الراهن — فى ضوء الضرورة الاجتماعية — ليراجع هذا المجتمع نفسه ويغير هذا الوضع الجائر — فالملاحظ من وجهة نظر مجتمعنا المصرى المعاصر أن الأنثى المصرية أقل عدوانا عليه من الذكر المصرى » .

فصاحب هذه الدراسة يدعو الرجال الى التنحى عن كل مواقع المسئولية فى الدولة وترك مقاعدهم للنساء . لأنهن أقل عدوانية على المجتمع من الرجال وأقدر على اشاعة العدل والسلام فيه . وسنعود فى فصل لاحق الى هذه الدراسة لمناقشتها وبيان أخطائها .

* * *

الفصل الثانى

مفهوم تحرير المرأة

فى اعتقادى ان لتحرير المراة مفهومين . أحدهما المفهوم الغربى الذى أفضل أن أسميه المفهوم الوثنى لأنه أكثر دلالة عليه والثانى المفهوم الاسلامى . وسأتكلم فيما يلى عن كل منهما ثم ننظر على أى الدربين سارت حركة تحرير المرأة فى مصر .

أولا — المفهـــوم الوثنى

كانت حياة المراة فى المجتمعات الوثنية والمجتمعات اليهودية والمسيحية قاسية أشد ما تكون القسوة . وقد صور حالتها الاستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « المرأة فى القرآن » بقوله : « وعنـــد اليونان الأقدمين كانت المرأة مسلوبة الحرية والمكانة فى كل ما يرجع الى الحقوق الشرعية . وقد كان أرسطو يعيب على أهل اسبرطه تساهلهم مع نساء عشيرتهم ومنحهن حقوق الوراثة والبائنة وحقوق الحرية والظهور ما يفوق أقدارهن ويعزو سقوط اســــــبرطة واضمحلالها الى هذه الحرية وهذا الاسراف فى الحقوق — ثم يقول : ومذهب الرومان الأقدمين كمذهب الهنود الأقدمين فى الحكم على المراة بالقصور حيث كانت لها علاقة بالآباء أو الأزواج أو الأبنـــاء .

وشعارهم الذى تداولوه ابان حضارتهم أن قيد المرأة لا ينزع ونيرها لا يخلع » .

لقد كانت المجتمعات المسيحية فى أوروبا أجهل ما تكون بجوهر عقيدتها السمحاء لأن الفكر المسيحى لم يجد فى المجتمعات الغربية تربة صالحة لنمائه وازدهاره . ولعل ذلك راجع الى أسلوب السلطة الدينية فى التعامل مع اتباعها . وهو الأسلوب الذى نزع الى الاستعلاء والتسلط وفرض الكبت الفكرى . فضلا عن التعصب الفظيع ضد غير اتباعها من المسيحيين البروتستانت والمسلمين واليهود . وهو التعصب الذى كشف عنه تاريخ ديوان التفتيش الذى انشأه البابا عام ١٣٣٣ ميلادية والذى ظل يرتكب أفظع وأبشع جرائم التعذيب ضدهم الى ان اكتسحه طوفان الثورة الفرنسية فى أواخـــر القرن الثامن عشر .. كان أسلوب السلطة الدينية فى روما فى تعاملهـــا مع الأتباع وغير الأتباع آية كبرى على جهلها بالأساس العظيم الذى قامت عليه العقيدة المسيحية وهو المحبة والتسامح . وكان التحرير من سيطرة الكنيسة وتسلطها أعظم ما قدمته الثورة الفرنسية لشعوب أوروبا التى خرجت من سجن الكنيسة مهرولة لتجد نفسهـــا مرة أخرى فى متاهات الوثنية كافرة بتلك المفاهيم الدينية التى فرضتها الكنيسة والتى يتبرأ منها المسيح عليه الصلاة والســـــلام . بل واحسبها من فرط ما شقيت بعقيدتها الدينية قد كفرت بكل ما يمت بصلة الى العقائد الدينية . ولا يهم أن تحتفظ الى يومنا هذا بنسبتها الى المسيحية فحسبها انها قد تحررت من قيودها وتسلط رجالها . وهكذا يمكن القول بأن المجتمعات الغربية لم تخضع فى يوم من أيام تاريخها الطويل لشريعة سماوية ولم تهذبها عقيـــــدة دينيـــة صحيحة .

والفكر الوثنى الذى نعتمد عليه فى استخلاص مفهوم تحـــرير المرأة فكر عدوانى انانى يسود أعمال الأفراد والحكومات وهو لهذا فكر منحرف لا يعرف الاستواء لأن العقيدة الدينية الصحيحـــة هى

المصدر الوحيد للفكر السوى ــ على نحو ما سنبينه عند الحديث عن المفهوم الاسلامى ــ ومن يتأمل بتجرد واخلاص للحقيقة فى انتاج المفكرين الغربيين الأقدمين والمحدثين لا يجد صعوبة فى ادراك انحرافه وعدوانيته ولنضرب لذلك بعض الأمثلة عن الأقدمين منهم والمحدثين . وللحديث عن الأقدمين نتجه بطبيعة الحال الى طليعة الفكر الأوروبى وتراثه العظيم وهو الفكر الأغريقى حيث نجد أرسطو المعلم الأول (٣٨٤ ــ ٣٢٣ ق.م) يزعم أن علم الأخلاق غير ثابت القواعد يقينى النظريات كالعلوم الرياضية وانه علم قابل للأخذ والرد . وانه مجموعة قواعد تعليمية غير ثابتة يقصد بها تحسين أحوال الانسان . ويقول ان علم الأخلاق نافع فى بعض النواحى . وقصر هذا النفع على طبقة معينة من الشباب وهى طبقة النبلاء الكرام . لأن العامة فى رايه كالأنعام لا يفعلون من الخيرات الا ما يحقق رغباتهم . ولا يتجنبون من الشرور الا ما يباعد بينهم وبين العقاب. أما الشباب الأرستقراطى فيعمل الفضيلة لذاتها ويأتى الخير ويتجنب الشر لا رغبة فى مكافأة ولا رهبة من عقوبة لأن نفوسهم نشأت مستعدة للخير وترعرعت بين أعطاف النبل والشرف ...

ويقول الدكتور محمد غلاب فى كتابه « الفلسفة الاغريقية » أن أرسطو يشترط فى نظرته الى الاستقلال الاقتصادى الغاء نظام الاستئجار فى الأسرة واكتفائها بما فيها من سادة يأمرون ويدبرون وأرقاء يعملون وينتجون . وذلك لأن الرق عنده كان فى مقدمات الضرورات الاجتماعية ولذلك يسمى أرسطو العبيد « الآلات الحية » ويقرر أنه لا يمكن الاستغناء عنهم الا حين تصبح ادارة الأنوال فى الامكان بدون حاجة اليهم . ولم يكن ارسطو يرى فى تقسيم الانسانية الى سادة وعبيد شيئا من الظلم والقسوة . بل كان يعتقد أن هذا التقسيم نظام فطرى أرادته الطبيعة وأمرت باتباعه . فأنشأت فى البلاد الحارة كآسيا قوما كسالى خاملين

لا يصلحون الا لأن يكونوا عبيدا . وفى البلاد المعتدلة قوما نشطاء مجدين هم السادة بطبيعتهم لا بالاتفاق .

هذا مثل صارخ للانحراف الفكرى مصدره أبو الفلسفة الذى يعلم أنه هو وأضرابه مدينون بثقافتهم لشعوب آسيا وأفريقيا . ويقول الدكتور محمد غلاب فى تعليله لهـــذا الانحراف الفكرى : « نحن نرى أن صدور مثل هذه الآراء من أرسطو غريب ــ بــل هو لا يكاد يلتئم مع منطقه وتفكيره المستقيم . ولكن لعله تورط فى ذلك ليبرر استعباد الاسكندر الذى كان مؤسسا على نظـــام الرق الفردى والجماعى » . وليس من شك فى أن الدكتور غلاب يعتـــذر عن الفيلسوف الاغريقى بما هو اقبح من الذنب .

ومن الفلاسفة الاغريق الذين يهمنا أن نذكرهم ونحن بصدد الحديث عن الانحراف الفكرى ذلك الفيلسوف المسمى « ابيكور » (٣٤١ ــ ٢٧٠ ق٠م) الذى يؤسس الأخلاق على مبدأ اللـــذة الجسمية فيجعلها غاية الحياة ومرماها . ويرى أن محاولة اقصاء الانسان عن اللذة هى محاولة لاقصائه عن طبيعته . وهـــذه المحاولة اما أن تفشل واما أن تنتج شـــقاء المقصى عن غريزته . ويرى ايضا أن اللذة اذا وصلت الى حد احـــداث اضطراب فى الجسم أو الروح انقلبت الى رذيلة ...

ويقول ناقدوه أنه يقرر بصريح العبارة أن اللذة التى يجعلها غاية الحياة هى اللذة الجسمية الخالصة التى يدعوها فى غـــير حيـــاء بلذة البطن . ويرد أبيكور على مخالفيه بقوله : « أنـــا لا أستطيع أن أدرك الخير اذا الغيت من الحيـــاة لذائذ الذوق والسمع والنظر والمتع الجنسية » وقوله أيضا : « بدون شـــك يوجد سرور نفسى ولكن هذا السرور لا يكون أبدا الا من ذكريات ماضى اللذائذ الجسمية ومستقبلهـــا وكذلك جميع المسرات التى يخيل الى انها نفسية خالصة هى كلها مادية أو راجعة الى نتيجة

مادية . فمثلا لا يشعر الانسان فى الصـــداقة بأى سرور إلا اذا تمثل فى الصديق انه يشبه تعهدا بالأمن أو نوعا من الضـمان ضد الألم » .

ولقد وجد هذا الفكر الوثنى المنحرف امتدادا أمينا له فى الفكر الغربى الحديث الذى بدأ يزدهر فى أواخر القرن الثامن عشر وفى القرن التاسع عشر . ولعل نظريات النشوء والارتقاء من أهم نتاجه . وهى النظريات التى شغلت عقول مفكرين كثيرين منذ ذلك التاريخ الى يومنا هذا والتى اتخذت اهميتها من معارضتها للمعتقدات الدينية من جهة ومن محاولة بعض أنصارها نفى هذه المعارضة من جهة اخرى — أقول ان الفكر الوثنى وجد له امتدادا امينا فى الفكر الغربى الحديث لأنى الاحظ أن العالم الألمـانى جوستاف كلم KLEM (١٨٠٢ — ١٨٦٧) يقيم نظريتـه التطورية على مبدأين أولهما ثنائية السلالات البشرية بتقسـيم الجنس البشرى الى قسمين : شعوب سلبية ليس لها القـدرة على الاختراع والابتكار والخلق وتعيش على النقل والتقليد ويدخل فيها الزنوج والمغول والفنلنديون والمصريون والطبقـات الدنيـا من المجتمع الأوروبى . وشعوب ايجابية نشيطة ومن أهمهـا شعوب الجرمان التى ينتمى اليها ذلك العالم . وهو نفس التقسيم الذى قال به أرسطو من قبل . وكان داروين معاصرا لكلم ونشر كتابه « أصل الأنواع » فى عام ١٨٥٩ وهو الكتاب الذى تضمن نظريته فى ربط الانسان بالأرض ونفى صلته بالسماء .

ولا بد أن أشير هنا الى سيجموند فرويد ذلك اليهودى الماكر الذى جعل من نظرياته فى التحليل النفسى محاولة أخرى لاحكام ربط الانسان بالأرض والقضاء على كل امل فى اتصاله بالسماء . فهو يزعم أن جميع الظواهر النفسية سواء كانت شـعورية أو لا شعورية كانت سوية أو مرضية تصدر عن قـوى ديناميـكية

اساسية تنبعث عن التركيب الفسيولوجى الكيميائى للكائن الحى . وتسمى هذه القوى بالغرائز . وهى الطاقة التى تصدر عنها جميع ظواهر الحياة ثم نسب الى الكبت الجنسى كل الأمراض النفسية التى يصاب بها الانسان . ودعا الى تحرير غريزة الجنس من قيود الدين وتقاليد المجتمع . ولقد وافقت دعوته هذه هوى فى نفوس الشعوب الغربية التى ضجت من الكبت الذى فرضته العقيدة الدينية وأسبغت عليه الكنيسة حمايتها . كما صادفت هوى فى نفوس شبابها خصوصا بعد الحرب العالمية الأولى .

ويتعاون مع فرويد على تدمير القيم الانسانية فى المجتمعات الغربية علماء الاجتماع الذين قال بعضهم عن الأسرة أنها ليست اصلا من أصول حياة الانسان بحيث يمكن أن يلفظها المجتمع فى أى وقت دون أن يخشى خطرا يهدده أو يعوق مسيرته وتقدمه وقال بعضهم الآخر أنها ضرورة اقتصادية كانت قائمة بتملك الرجل وسائل الانتاج واضطرار المرأة الى الاعتماد عليه فى اعالتها والى الاستسلام لأنانيته . فاذا تغيرت الأوضاع الاقتصادية وشاركت المرأة فى ملكية وسائل الانتاج لم تعد بها حاجة الى الاعتماد على الرجل ولم تعد بالمجتمع حاجة الى الأسرة . هذا فضلا عن أن الاقتصاديين يعرفون العمل بأنه كل جهد أو نشاط فى عالم البالغين ينال الشخص فى مقابله أجرا ماليا أو جزاء ماديا . وبذلك يخرجون من عداد القوى العاملة ربات البيوت .

وفى أحضان هذه المفاهيم ترعرعت حركة تحرير المرأة الغربية وشقت طريقها نحو أهدافها وسارت فيه بخطى واسعة الى غايته حيث المساواة المنشودة بالرجل . المساواة به فى الحقوق السياسية والحقوق الاجتماعية . وتفككت الروابط الأسرية الى درجة أثارت فزع بعض العلماء على مستقبل المجتمعات البشرية . بيد أن البعض الآخر يرى أن الأسرة لم تتفكك ولكنها تمكنت من تطوير نفسها

والسير بعلاقاتها نحو طراز جديد يمتاز بالزمالة أو الصحبة الأسرية كما يمتاز بالضبط الداخلى وذلك بدلا من العلاقات الآمرة أو المسيطرة ، وقد أطلقوا على الأسرة التى تسودها هذه العلاقات اسم « أسرة الصحبة » ويميزها عن الأسرة التقليدية روح الديمقراطية التى تسودها والحرية التى يتمتع بها أعضاؤها كما يميزها تغيير كبير فى مركز وعلاقة الزوج والزوجة نتيجة للتغيير فى الأساس الاقتصادى الذى تقوم عليه بسبب خروج المراة للعمل وشعورها بالاستقلال والمساواة والتغيير فى سلطة الرجل التقليدية الذى جعل العلاقات داخل الأسرة تقوم على التفاهم والزمالة والتعاون . ويصبح البيت بالنسبة لأسرة الصحبة مكانا يلتقى فيه الزوجان والأبناء للنوم .

نخلص من هذا الى القول بأن مفهوم تحرير المراة بمعناه الغربى هو مساواتها بالرجل من حيث حقه فى العمل السياسى والاقتصادى والاجتماعى والى تأكيد أن عملها التقليدى الذى مارسته عبر آلاف من السنين والمتمثل فى أدوار الزوجة والأم وربة البيت لا يعتبر عملا مستأهلا تخصصها فيه وتفرغها له لأن العمل عندهم كما ذكرنا هو كل جهد أو نشاط ينال صاحبه فى مقابله أجرا .



ثانيا : المفهوم الاسلامى

كانت علاقة الرجل بالمرأة محكومة عبر تاريخها الطويل بأمرين : تفوق الرجل الجسمانى واسطورة دينية اشارت اليها التوراة تلقى على حواء مسئولية طرد آدم من الجنة لا يزال الكثير من بنى الانسان يعتقدون بصحتها على الرغم من أن القرآن الكريم دحضها ولذلك كانت نقمة الرجل تحل بالمرأة كلما تكاثرت عليه

متاعب الحياة أو تعاظمت مخاطرها وقد تعرضت المرأة بسبب هذين الأمرين لمظالم كثيرة فى كل الشعوب المتدينة . أما المجتمعات التى لا تعرف شيئا عن أسطورة الطرد من الجنة فقد كان تفوق الرجل وحده سيد العلاقة فيما بينه وبين المرأة .

فلما جاء الاسلام ليرشد الانسان الى أسلوب الحياة الأمثل وليعلمه السلوك الذى يكفل له تحقيق رسالته على الأرض كانت علاقة الرجل بالمرأة وتنظيمها من أعظم اهتماماته . وحين نتأمل المبادىء التى أقام الاسلام عليها هذه العلاقة لا يثير دهشتنا غناؤها بالجمال والكمال لأننا نعلم أنها من صنع مبدع هذا الكون العظيم سبحانه جل شأنه . فنرى فى البداية اهتمامه بالكشف عن فساد تلك الأسطورة الدينية . ثم نرى اهتمامه بترويض تفوق الرجل الجسمانى حتى لا ينحرف به لغير ما خصص له . ونرى أخيرا كيف جعل عمارة الأرض قسمة عادلة بينهما .

(١) فساد الأسطورة الدينية :

يتجلى اهتمام الاسلام فى الكشف عن فساد تلك الأسطورة واثبات براءة حواء من مسئولية الطرد من الجنة فى قوله تبارك وتعالى :

« ويا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما وورى عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » الأعراف ١٩ — ٢٠ .

هنا يوضح القرآن الكريم أن ابليس وسوس لآدم وحواء معا وأن الوسوسة لم تكن لحواء وحدها مما يقطع بأن المسئولية واقعة على الاثنين . ومع ذلك فانى أرى أن المسئولية عن الخروج

من الجنة غير موجودة أصلا . أما المسئولية عن مخالفته أمر الله بالأكل من الشجرة فقائمة وان كانت قد انمحت بالتوبة والمغفرة . وانعدام المسئولية عن الخروج من الجنة يتضح من قول الله تبارك وتعـــالى :

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمـــدك ونقدس لك قال انى أعلم ما لا تعلمون » البقرة ٣٠ .

فهذه الآية الكريمة تبين أن الله سبحانه وتعالى خـلق آدم ليستخلفه فى الأرض وهذا يعنى أن السكن فى الجنة لا يمكن أن تكون له صفة الدوام . بل هو حالة عارضة موقوتة بتحقيق الحكمة من تقريره . هـــذه الحكمة يمكن اســتخلاصها من قــول الله تعـــالى :

« ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس لم يكن من الساجدين . قـــال ما منعك ألا تسجد اذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فمـــا يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج انك من الصاغرين قال انظرنى الى يوم يبعثون قال انك من المنظرين . قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجـــد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذءوما مدحورا . لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين . ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شـــئتما ولا تقربا هـــذه الشجرة فتكونا من الظـــالمين » الأعراف ١١ ــ ١٩ .

ويمكن ترتيب وقائع هـــذه الآيات الكريمـــة على النحـــو التـــالى :

١ ــ تحول ابليس بعد أن عصى ربه الى عدو مبين لآدم . فلقد كان خلق آدم نذير هلاكه اذ طرد من رحمة ربه .

٢ ـ طلب ابليس من ربه ان يمد فى عمره الى يوم البعث العظيم فاستجاب له .

٣ ـ لما اطمأن ابليس الى أن الله سبحانه وتعالى استجاب لدعائه صرح بما سيكون عليه سلوكه مع آدم وذريته « قال فبما أغويتنى .... » .

٤ ـ عقب هذا التهديد مباشرة صدر أمر الهى الى آدم يقول :

« ويا آدم اسكن انت وزوجك الجنة .... » .

وفى اعتقادى أن هذا الأمر من مقتضيات العدل الألهى لأنه يتيح لآدم وزوجه أن يعيشا فى تجربة يأخذان منها فكرة عن قدرة هذا العدو الخطير الذى سيعايشهما على الأرض . ويتعلمان منها بعض اساليبه فى تزيين الباطل ، حتى اذا نزلا الى الأرض وبدأت عليها رسالتهما كانا على بينة من أمر عدوهما اللدود .

فالسكن فى الجنة كان موقوتا ولا ريب . وكانت حكمته ذلك الدرس الذى يعتبر بحق اثرآ خالدا من آثار العدل والرحمة الألهيين . ولذلك نرى القرآن الكريم يذكر ذرية آدم به فى قول الله تبارك وتعالى :

« يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج ابويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم انا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » الأعراف ٢٧ .

(٢) ترويض التفوق الجسمانى :

تفوق الرجل فى الجسم أحدث على مر السنين اوضاعا فى العلاقة بينه وبين المرأة لا يقرها عقل سليم ولا شرع قويم .

وتاريخ الشعوب حافل بأخبار الأوضاع المهينة التى كانت مفروضة قبل الاسلام على حياة المرأة فى المجتمعات الشرقية والمجتمعات الغربية على السواء .

ولقد قضى الاسلام على تلك الأوضاع بأحكامه العادلة التى قررها لتنظيم علاقة الرجل بالمرأة وبمبادئه التى تكفلت بترويض التفوق الجسمانى حتى لا يضل ويستغل فى غير غايته المشروعة .

كان اسوأ ما وجده الاسلام فى مجتمع شبه الجزيرة العربية وربما فى سائر المجتمعات البشرية عادة واد البنات وقد كانت وسيلتهم السهلة لتوقى العار او الفقر أو هما معا ولقد رفض الاسلام هذه الوسيلة الباغية الظالمة ونهى عن تلك العادة الوحشية . اذ قال الله فى قرآنه المجيد :

« واذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب . ألا ساء ما يحكمون » النحل ٥٨ — ٥٩ .

« واذا الموءودة سئلت . بأى ذنب قتلت » التكوير ٨ — ٩ .

ثم يضع ضوابط السلوك التى تكفل حماية الأنثى من الانحراف والتى تكفل الحفاظ على كرامة الفقراء . أما عن حمايتها من الانحراف والحفاظ على طهرها وكرامتها فكان بتحريم ظهورها فى النوادى والمحافل والمجتمعات العامة وباعد بينها وبين ما يريب او يبعث على الفتنة وحرم عليها أن تبدى زينتها . يقول الله تبارك وتعالى :

« وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى واقمن الصلاة وآتين الزكاة واطعن الله ورسوله » الأحزاب ٣٣ .

« وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن

ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ماملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن » النور ٣١ .

« يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن » الأحزاب ٥٩ .

ومن اقوال الرسول صلى الله عليه وسلم :

— « لا يخلون رجل بامرأة الا ذى محرم » (١) .

— « ما اجتمع رجل وامرأة الا كان ثالثهما الشيطان »(٢) .

وأما عن حفاظه على كرامة الفقراء فكان بتقريره مبدأ الزكاة وجعله ركنا من أركان الاسلام الخمسة واعتباره حقا للفقير فى مال الغنى . يقول الله تبارك وتعالى :

« وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » البقرة ١١٠ .

« فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ذلك خير الذين يريدون وجه الله » الروم ٣٨ .

« والذين فى أموالهم حق معلوم السائل والمحروم » المعارج ٢٤ — ٢٥ .

وليس هنا بطبيعة الحال مجال لوضع صورة كاملة أمام القارىء وانما هى اشارة يفرضها البحث لبيان عظمة التشريع

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى .

(٢) رواه الترمذى وابن حنبل .

وكماله . ثم نتابع بعض آى الذكر الحكيم الذى استهدف ترويض قوة الرجل حتى لا يعود الى بطشه بالمرأة وظلمه لهـا . يقـول أصـدق القائلين :

١ ـ **((ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة . ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون))** الروم ٢١ .

يقرر القرآن الكريم فى هذه الآية الكريمة أن المرأة قطعـة من الرجل أى من نفس معدنه وأن من وظائفها فى الحيـاة أن تكون سكنا له يجد عندها راحة نفسه واطمئنان قلبـه وهدوء باله . فلا ينبغى له أن يستعلى عليهـا أو يبطش بها . بل يجب أن تحكم المودة والرحمة العلاقة بينهما .

٢ ـ **((وان اردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احـداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا . أتأخذونه بهتانا واثما مبينا))** النسـاء ٢٠ .

٣ ـ **((وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكـرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا))** النسـاء ١٩ .

٤ ـ **((الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان . ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا الا أن يقيما حدود الله))** البقرة ٢٩ .

فماذا تكون يا ترى الحكمة من هذا الاهتمام الشديد بترويض قوة الرجل وسـد طريقها الى الغلظة والفظاظة ؟

ان عمارة الأرض ـ وهى رسالة الانسان ـ محتاجة الى كل طاقات الرجل والمرأة فلا ينبغى لهما أن يبددا شيئا منهـا فى صراع بينهما . بل يجب أن تكون السماحة والايثار دستور التعامل بينهما . ويجب أن يقوم بينهما تعاون كامل نظيف من كل صـور الأثرة والاستعلاء .

(٣) القسمة العـــادلة :

اما كيف جعل الاسلام عمارة الأرض قسمة عادلة بين الرجل والمرأة فنعرفها من الهيئة التى خلق الله سبحانه وتعالى عليهـا كلا من الرجل والمرأة . والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » (١) .

ونحن اليوم — بما احرزنا من تقدم فى العلوم — اقــدر على معرفة الهيئتين وادراك ما بينهما من اختلاف وأدراك حكمته التى لا يمكن أن تكون غير تحديد الدور الذى يجب أن يقوم به الرجل والدور الذى يجب أن تقوم به المرأة .

وكان الدور الذى قام به الرجل والذى هدته اليـه فطرته وفرضـــتها عليه هو العمل خـارج البيت . امــا دور المــرأة فكان العمل فى البيت . ولولا الفطرة لما قبل الرجل تعريض حياته لمخاطر العمل خـارج البيت حيث كان عليــه أن يجوب الوديان ويقتحم الغابات ويتسلق شعاب الجبال بحثا عما يحفظ عليه هو وزوجه وأولاده الحياة . بل لاستغل قوته واكره زوجه على مواجهة تلك المخاطر ولآثر السلامة بالبقاء فى البيت . ولكن الله سبحانه وتعالى خلقه قويا شجاعا شهما ليحمل قدرا من المسئولية اكبـر وأخطر بل ان الله جل جلاله حباه أيضا بحظ أوفر فى العقل لتكتمل فيه متطلبات مسئوليته .

وما أحسب التفوق الجسمانى للرجل فى حاجة الى دليل فهـو ظاهرة مادية ملموسة اثبتت وجودها عبر تاريخ البشرية الطويل . أما التفوق العقلى فلأنه ظاهرة غير مادية قـد جحـده كثيرون وشكك فيه كثيرون استنادا الى تفوق احرزه بعض النســوة فى مجالات علمية مختلفة مع انه لا يعدو أن يكون استثناء من قاعدة عامـة .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

وتفوق عقل الرجل على عقل المرأة يشهد عليه القرآن الكريم **كما تشهد عليه البحوث والدراسات العلمية :**

فمن القرآن الكريم نستشهد بهذه الآيات البينات يقول عـز من قائل :

« واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا » البقرة ٢٨٢ .

والشهادة اعادة لوقائع شوهدت واقوال سمعت واستيعاب المشاهد وحفظ الأقوال وظيفة من وظائف العقل . والقرآن يؤكد هنا أن قدرة العقل البشرى على الاستيعاب والحفظ والاعادة الدقيقة هى فى المرأة اقل منها فى الرجل . وعبارة « أن تضل » الواردة فى الآية الكريمة تعنى النسيان الذى هو نوع من انواع القصور فى العقل . ويفسرها الشيخ محمد رشيد رضا فى المنار « بالخطأ والضياع وعدم الاهتداء » .

وهذه هى الحالة الوحيدة التى أجاز فيها القرآن الكريم شهادة المرأة . أما الآيات الأخرى فقد قصرتها على شهادة الرجل. يقول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم اذا حضر احدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم أو آخران من غيركم ان أنتم ضربتم فى الأرض فاصابتكم مصيبة الموت » المائدة ١٠٦ .

« واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فان شهدوا فامسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت او يجعل الله لهن سبيلا » النساء ١٥ .

« فاذا بلغن اجلهن فامسكوهن بمعروف او فارقوهن بمعروف واشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله » الطلاق : ١٢ (١) .

---

(١) باب الشهادة فى كتب الفقه مبسوط تحت نفس العنوان فليرجع اليه من شاء الاستزادة .

اما البحوث العلمية فنذكرها هنا لا تأييدا لما جاء فى القرآن الكريم من اثبات التفوق العقلى للرجل على المراة . ولكن لأننا نؤمن أن من أهم وظائف العلم مساعدة العقل البشرى على ادراك الحقائق القرآنية أو مزيد من الفهم لها . وهى حقائق يؤمن بها المسلمون ذوو الفطرة السليمة ويزداد ايمانهم بها رسوخا كلما تقدم العلم ونجح فى اكتشاف أسرار الكون . ونذكرها هنا ايضا لقطع السبيل على هؤلاء الذين لا يؤمنون الا بالعلم والأدلة العقلية .

نشرت مجلة العلم والمجتمع التى تصدر بالعربية عن مجلة رسالة اليونسكو فى عدد ديسمبر سنة ١٩٧١ بحثين عن المراة . أحدهما بعنوان « النساء فى مجال العلوم » للدكتورة كاتلين لونزديل . والثانى بعنوان « القدرة العقلية للمراة ومتطلبات العلم » للدكتورة اليانور أ . ماكوبى . وهما كما هو واضح خلاصة جهد امراتين متفوقتين وليسا من دراسات الرجل حتى يمكن الطعن فى نزاهتهما . وسنعرضها بايجاز فيما يلى :

* * *

البحث الأول ــ النساء فى مجال العلوم :

تقول صاحبة البحث أن القمة فى مجال العلوم لا يدركها الا عدد قليل من النساء وتؤيد هذه الحقيقة بالأحصائيات . ومن أهم ما ورد فى البحث :

١ ــ قال عالم فسيولوجى انه بالرغم من ان الجدل لا يزال قائما حول هل مخ الأنثى من قوة الفكر بمثل ما عليه مخ الذكر فانه مقتنع مع ذلك بأنه لو دربت عقول الاناث تدريبا منتظما منسقا لقلت الأمراض بين نساء الطبقات العليا .

٢ ـــ فى ١٢ مارس سنة ١٩٤٥ تم انتخاب صاحبة البحث ومارجورى ستيفنسون لعضوية الجمعية الملكية بلندن ومنذ ذلك الوقت لم تنتخب عادة أكثر من امراة واحدة كل عام بالمقارنة بخمسة وعشرين أو خمسة وثلاثين رجلا . وحتى هذه النسبة ـــ أى اختيار امراة واحدة ـــ تعتبر عالية اذا قورنت بالنسبة فى بعض المجامع العلمية الوطنية الأخرى ...

ولا يستطيع احد ـــ هكذا تقول صاحبة البحث ـــ حتى اشد انصار المراة ان يدعى أن هذا يرجع الى التمييز ضد الجنس . الواقع أنه لا يبلغ كثير من النساء مراكز القمة فى البحث العلمى بحيث تتوفر لهن شروط التأهيل اللازمة للترشيح للزمالة .

٣ ـــ حوالى ٩٠ ٪ من الفتيات يتزوجن وينجبن أطفالا . وحوالى ثلث هؤلاء النساء المتزوجات سوف يرتبطن بعمل كامل أو جزئى خارج بيوتهن يتقاضين عليه أجرا وانه ليصعب جدا الحصول على أية مساعدة فى الخدمات المنزلية وبالتالى فالقيام بعملين فى وقت واحد وآداؤهما كليهما أداء حسنا يستلزم درجة غير عادية من التصميم والقدرة التنظيمية . ولا يتحتم أن تتلازم هذه السمات بالضرورة مع القدرة الفطرية على التفوق فى الرياضة أو الفيزياء ..

اما المراة العزبة فكثيرا ما يحدث أن تقع على عاتقها مسئولية العناية بأحد الوالدين فى شيخوخته فى حين أنها هى تتقدم فى العمر ويصعب التوفيق بين هذا وبين عمل يستدعى صفاء الفكر فضلا عن قدر من الوقت الزائد عن المقرر لكى يتسنى مباشرته على مستوى المسئولية التى تصاحب الأعمال ذات المرتبات العالية . فليس من الأمور التى تثير الدهشة مطلقا أن يكون عدد النساء اللاتى ينجزن مثل هذه المسئولية بل يرغبن فيها عددا صغيرا .

* * *

البحث الثانى ــ القدرة العقلية للمرأة ومتطلبات العلم :

تقول المجلة ان صاحبة هذا البحث لها بحوث عديدة فى علم النفس الاجتماعى وتنشئة الطفل والاختلافات بين الجنسين . ويمكن تلخيص بحثها هذا فى النقاط التالية :

١ ــ ترجع أسباب الضعف النسبى لمستوى الانتاج العقلى للنساء الى أن الدور الاجتماعى للمرأة لا يتناسب مع الحياة العلمية اذا قورن بدور الرجل . فانه من الصعب على المرأة أن تتفرغ ذهنيا لمتابعة بحث علمى فى مجال من المجالات وهى تقوم بدورها كزوجة وأم على الوجه الأكمل . ان ذلك فى الواقع أصعب بكثير من أن يقوم الرجل بنشاط علمى وذهنى ويقوم مع ذلك بدوره كزوج وأب على الوجه الأكمل . كذلك فان الانتاج العلمى للحاصلات على درجة الدكتوراه لم يكشف عن تفوق غير المتزوجات اللائى يماثلن الرجال من حيث عدم الانشغال بمسئوليات غير مهنية تضيع عليهن بعض الوقت وقد ثبت أن هناك عوامل تؤثر تأثيرا كبيرا على نشاطهن وبالتالى على انتاجهن العقلى . وقد تكون هذه العوامل هى المعاناة من مشاعر خاصة معوقة أو عدم وجود الدافع الايجابى الذى يحقق الانتاج الأمثل .

٢ ــ دراسة الانتاج العقلى للمرأة فى مراحل عمرها تحمل على الاعتقاد بأن مسئوليات الزواج والأطفال وما تتطلبه من وقت ليست السبب فى قصور انتاجها العقلى . اذ أن قصور قدراتها العقلية ــ يبدو بوضوح ويظهر تلقائيا قبل الزواج ويستمر هذا القصور عندها حتى فيما بين الخامسة والثلاثين والخامسة والستين من عمرها حين تكون المسئوليات الملحة الخاصة بتربية الأطفال فى العادة قد انتهت . بينما يبلغ الرجل فى هذه الفترة من العمر أقصى درجات الانتاج العقلى فى مجال تخصصه .

٣ ــ ان البنـــات ينظرن الى الأشياء نظرة عامة شـــاملة غير تحليلية . وتقول الدكتورة اليانور انه من الطريف أن البحوث العلمية التى اجريت فى ثقافات مختلفة تمتد من أوروبا الغربية حتى هونج كونج أثبتت ميل النساء والبنات الى الاعتمـــاد على النظرة الشـاملة العامة للمواقف أكثر من ميلهن الى النظرة التحليلية .

٤ ــ هناك نوع خاص من الاختبارات به مســـائل قننت لاختبار قدرة الفرد على الانتقال الذهنى من قاعدة فكرية مستعملة فى الحال الى قاعدة أخرى يستنبطها الفرد ويســـــتدعى الموقف تشكيلها لمحاولة حل المشكلة بأسلوب جديد . وقد ثبت أن قدرات الرجـــال على أساس مثل هذه الاختبارات تفوق قدرات النساء .

٥ ــ فى مجال القدرة على التحصيل تقول الباحثة ان البنات يحصلن على درجات أحسن من درجات الأولاد خلال ســـــنوات الدراسة حتى فى المواد التى يحصل فيها الأولاد على تقديرات أعلى فى اختبارات التحصيل المقننة . أما فى سن الرشد بعد التخرج من المدرسة فان الرجال يحرزون نجاحا يفوق نجاح النساء فى أى مجال من مجالات النشاط العقلى تقريبا خصوصا الذى يمكن التحصيل فيه كتأليف الكتب وكتابة المقالات والانتاج الفنىوالانجازات العلمية. وقد أظهرت احدى الدراسات الطويلة المدى التى تتبعت بعض الأطفال الموهوبين أن الذكور منهم ينزعون فى الكبر الى تحقيـــق امكاناتهم وطاقاتهم الكامنة فى مهمتهم وفى الانتاج المبدع فى حين أن الاناث الموهوبات لم يحدث منهن مثل ذلك .

٦ ــ الخصائص التى تقترن بارتفاع معدل الذكاء ليست صفات أنثوية . وقد سئل أحد المشتركين فى الدراسة التى أجريت فى معهد (فلز) عن تاريخ وصفات النمو الواجب توافرها لكى تصبح طفلة ما شخصا يتمتع بالقدرات العقلية . فأجاب بأن أسهل رد

يمكن الاجابة عن هذا السؤال هو أن تكون الفتاة متصفة بصفات الأولاد فى فترة من فترات حياتها .

٧ ـــ تقول الباحثة أن (بلانك) قام بدراسة عن قصص حياة بعض شهيرات النساء فى العلوم الرياضية اللاتى كتبنهـــا بأنفسهن . وقد اظهرت هذه الدراسة أن هؤلاء السيدات المتخصصات فى الرياضيات يشتركن فى ظاهرة هامة . فكل منهن أشارت فيمـــا كتبت عن نفسها الى صلة تعلق قوية لدرجة غير عادية بأبيها فى مرحلة الطفولة اكبر بكثير من تعلقها بأمها . كما اشرن الى أنهن حاولن تشكيل انفسهن على شاكلة الآباء لا الأمهات .

٨ ـــ اذا نجحت فتاة خلال سنى طفولتها فى أن تحتفظ بصفات النزوع الى السيطرة والاستقلال والكفاح بجد . وكلها صـــفات اساسية للتفكير التحليلى الجيد . فان هذا سيكون تحديا منهـــا للعرف السائد لما يجب أن يكون عليه سلوك الفتاة . وبالرغم من انها قد تنجح فى ذلك بطرق عديدة فان المعتقد انه ما من أمراة مفكرة لها قدرات عقلية ممتازة الا دفعت ثمن ذلك فى المعـــاناة من القلق النفسى . والقلق له اضرار اهمها تأثيره على حياتها العاطفية وعلى شخصيتها . كما يمكن أن تكون له آثار ضارة بنشاطها العقلى أو الفكرى . بل انه مدمر للتفكير الخلاق .

٩ ـــ وفى النهاية تقول الدكتورة اليانور ان ما سبق بيانه يبدو مروعا لمن يريد للنساء أن يصبحن مفكرات لهن قدرات عقلية خلاقة . بل يبدو أيضا أنه حتى لو كانت أمراة موهوبة ذهنيـــا ونجحت فى تنمية المزاج المناسب والعادات الفكرية التى تجعلها تستفيد من هذه الموهبة فانه يجب عليها ان تكون جريئة شجاعة القلب ليمكنها أن تناوم ضغوط المجتمع من غير أن تتحطم ويمكنها أن تمارس نشاطها الفكرى وهى سعيدة .

ولعل من الواضح ان الدكتورة اليانور — وقد عرضت في بحثها هذا الكثير من التجارب والدراسات التى تؤكد امتياز الرجل على المرأة فى الانتاج العقلى المبدع — تتهرب من الاعتراف بفطرية السبب وتفضل رده الى ما تفرضه الأنوثة على المرأة من واجبات اجتماعية واقتصادية . ولذلك نراها تدعو الموهوبات الى الانطلاق من قيود المجتمع الذى تعيش فيه والتحرر من تقاليده حتى لا تخبو جذوة الموهبة التى تألقت فيها . وفى ظنى ان صاحبة البحث تطلب المستحيل لأن الانسان الذى لا يحفل بالمجتمع الذى يعيش فيه يوصف بالاستهتار ويفقد احترام الناس له . وذلك أمر لا تقدم عليه امرأة تحترم نفسها .

ونضيف الى هذين البحثين بحثا ثالثا اطلعنا عليه فى العدد الذى صدر يوم ٧ مايو سنة ١٩٧١ من صحيفة الأهرام وهو عبارة عن تلخيص لكتاب « بين الرجال » لعالم الاجتماع الكندى « لايونيل تايجر » الذى يرى أن العالم سيظل حتى الغد البعيد « عالم رجال » كل شيء يحدث ويدور فيه بين الرجال . وستظل المرأة اقلية مثل الزنوج .

ويقول هذا العالم فى كتابه :

« ان التقسيم والتفرقة والتمييز فى العمل بين الجنسين ظاهرة جامدة لأنها مبنية على معتقدات ومحرمات تعارض حدوث اى تغيير فيها . وتمتد جذور هذه الظاهرة بعمق فى طبيعة الحياة الاجتماعية للكائن البشرى . ففى جميع الحضارات نجد أن صيد الحيوان او السمك وصناعة الأدوات وصناعة التعدين وصناعة الأسلحة وغيرها أعمال من أختصاص الرجل فقط . أما المرأة فتقوم بأعمال الزراعة المجهدة وتمارس الفلاحة وتحمل الماء رغم انه يتطلب مجهودا اكبر من بناء زوارق الصيد مثلا . علاوة على قيامها بالشئون المنزلية من اعداد الطعام وحياكة الملابس وغير ذلك . وهذا التوزيع

بين الجنسين فى الاعباء يثير الاهتمام لأنه يوحى بأن جميع المجتمعات شعرت بأن التمييز فى العمل بين الرجل والمرأة ضرورة .

« باختصار فان الرجال الذين يكونون مجموعات صيد رجالية بحتة كانوا متفوقين فى حياتهم وفى نسلهم . بينما الجماعات التى تسمح للنساء بمشاركتها فى الصيد كانت تقل فرصتها فى البقاء وربما يكون هذا هو أحد الأسس التى خلقت ووطدت الرباط بين الرجل والرجل . واذا نظرنا الى الجماعة فى مجموعها فلم يكن من مصلحتها مشاركة النساء فى ممارسة الصيد لأنه فى حالة الحمل من الممكن ان يحصل اجهاض كما ان المرأة معرضة لأن تجرح أو تقتل .... ولذلك فان النساء اللائى كانت حياتهن مقصورة على الاهتمام بالأطفال وجمع الحبوب والنباتات وانواع النشاط المتعلقة بصيانة البيت كانت فرصهن فى التناسل اكبر من النساء اللائى كن يعملن فى الصيد . ولو كان الحال هكذا فانه يفسر لنا المعارضة شبه الجماعية فى بعض الدول لعمل المرأة خارج البيت . وخاصة تلك التى لديها أطفال فى سن صغيرة . كما قد يفسر لنا موقفا قريبا من هذا : احتقار النساء الجماعى للنساء اللائى لم ينجبن أطفالا سواء أكان هذا الاحتقار يتخذ الشكل الكاريكاتورى للعانس الجافة بل والمجففة فى الثقافات الأوروبية والأمريكية او صورة المرأة العقيم فى افريقيا وآسيا .

« وتوجد نسخة معاصرة تترجم عدم قدرة السيدات على الانجاب . وهى تتمثل فى النساء اللائى يشغلن مناصب هامة فى مجال الأعمال المهنية . ففى أمريكا الشمالية نجد ان ثلث العاملات فى الكادرات النسائية غير متزوجات كما ان المتزوجات يملن عادة الى انجاب اقل عدد ممكن من الأطفال أو حتى الاستغناء عنهم تماما . وقد نرى فى هذا الموقف صورة معاصرة للسباق التاريخى الذى ساعد على البقاء أو المبالغة فى السلوك الناتجة عن الفرق الجسمانى بين الجنسين .

« ونلاحظ نحن أن النساء اللائى يتبوأن مراكز هامة فى المجال السياسى يعود الفضل فى هذا الامتياز الذى حصلن عليه الى علاقة قرابة وثيقة وتعاون مع رجل سياسى توفى . ومن الأمثلة على ذلك السيدة سيريمافو بندرانيكا أرملة رئيس وزراء سيلان وأنديرا غاندى ابنة الزعيم الهندى نهرو وأرملة سونى بات سن البطل الثورى الصينى ومسز الينون روزفلت أرملة الرئيس الأمريكى . واذا القينا نظرة سريعة على الحياة السياسية فى كندا فسوف نجد شيئا غريبا وطريفا . وهو اذا رشحت أرملة نفسها للمقعد الذى خلا بوفاة زوجها فى الانتخابات الفيدرالية الجزئية تكون واثقة ١٠٠ ٪ من الفوز به . وأحد أسباب تعيين الأرامل فى المراكز الهامة يعود بلا شك الى الشعور بالعرفان والجميل الذى يشعر به زملاء الراحل للخدمات التى اداها فى حياته . وهناك أيضا سبب آخر وهو أن الخبرة التى اكتسبتها الأرملة طوال شغل زوجها لمنصبه الكبير وعلاقاتها بزملائه ربما قد لفتت انتباههم الى مواهبها السياسية .

« اننى سياسيا اعتقد أن زيادة مشاركة المرأة وزيادة تأثيرها فى المجال السياسى أمر مرغوب فيه . ولكنى كعالم اجتماع أخشى أن يكون من الصعب تحقيق ذلك . لأن المسألة ليست فى الحقيقة مشكلة بسيطة متعلقة بالتعليم والتحرر . وانما هى فى الواقع استعداد تمتد جذوره فى اللاشعور . ولابد من اعادة شاملة فى تكوين المجتمع السياسى حتى يمكن التغلب على هذه الصعوبات ... ان العالم سيظل فى الغد القريب والبعيد أيضا عالم رجال .... ان النساء لا يتحدن فيما بينهن . لا يوجد تضامن بين النساء . فالمرأة لا تثق بامرأة أخرى علاوة على أن المرأة اقتصاديا وجنسيا تعتمد كثيرا على الرجل لكى تظل مترابطة مع النساء الأخريات . فكل واحدة تفكر أولا وقبل كل شىء فى بقاء جماعتها الخاصة » .

لقد بينت كل من الدكتورة كاتلين لونز ديل والدكتورة اليانور ما كوبى دور العقل عند كل من الرجل والمرأة . وبين الاستاذ لايونيل

تايجــر راى علم الاجتماع فيما يمكن تحقيقه من آمال المراة المتطلعة الى المساواة الكاملة بالرجل . وعلم الاجتماع لا يعترف فيما يبدو من تفسيرات الاستاذ تايجر بالفطرة الانسانية . لأننا نلاحظ انه عبر عنها بقوله : « ان التقسيم والتفرقة والتمييز فى العمــل بين الجنسين ظاهرة جامدة لأنها مبنية على معتقدات ومحرمات تعارض حدوث أى تغيير فيها . وتمتد جذور هذه الظاهرة بعمق فى طبيعة الحياة الاجتماعية للكائن البشرى . »

ان الله سبحانه وتعالى خلقنا من ذكر وأنثى ولا يمكن الزعم بأن الحكمة وراء ذلك هى التناسل لحفظ النوع واستمرار الحيــاة وحسب . والا فان الله عز وجل قادر على استخلاف انسان من جنس واحد يتناسل ويتكاثر من ذات نفسه . ومن ثم يجب الا نختلف على أن عمارة الأرض التى هى رسالة الانسان قسمة بين كل من الرجل والمرأة وأن القسمة يجب أن تكون عادلة وأن تستمد عدالتها من قدرة كل منهما على ابداع حظه منها . ويجب أيضا الا نختلف على أن الله سبحانه وتعالى يسر للرجل الوظائف الأساسية ويسر المرأة للوظائف المساعدة . وعلى انه قدم الرجل على المراة وجعله قيما عليها وأعطاه حق تأديبها والله سبحانه وتعالى يقــول فى كتابه الكريم :

« الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض . وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله . واللاتى تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن . فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ان الله كان عليــا كبيرا » النساء ٣٤ .

كذلك فان الله سبحانه وتعالى قد بين أن القيادة الرشــيدة لا تكون الا فى ذوى الأجسام القوية (بصحة وشجاعة وقدرة على المغالبة) والعقول المستنيرة بالعلم والمعرفة فيقول وهو اصــدق القــائلين :

((وقال لهم نبيهم ان الله قد بعث لكم طالوت ملكا . قالوا انى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال . قال ان الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم . والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم)) البقرة ٢٤٧ .

((قالت احداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الأمين)) القصص ٢٦ .

فاذا أضفنا الى هذا أن الله سبحانه وتعالى لم يضع رسالته فى امرأة . لقوله تعالى : **((وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون))** النحل ٤٣ .

((وما أرسلنا قبلك الا رجالا نوحى اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون)) الأنبياء ٧ .

ولم يجتمع ذكر الرجل والمرأة فى آية من آيات الكتاب العظيم الا تقدم ذكر الرجل . فالله سبحانه وتعالى يقول :

((ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن)) النساء ٣٢ .

((الا المستضعفين من الرجال والنساء)) النساء ٩٨ .

((ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم)) الفتح ٢٥ .

((يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء)) النساء ١ .

((وان كانوا اخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين)) النساء ١٧٦ .

نخلص من هذا الى القول بأن الله سبحانه وتعالى لم يخلق المرأة لتقود سفينة الحياة وانما خلقهـــا ميسرة لمساعدة ربان السفينة وامانته على قيادتها بنجاح الى شاطىء الأمان . فـــاذا تطلعت الى مقعد القيادة وسعت اليه تكون ظالمة لنفسها . واذا نجحت فى الوصول اليه تكون قد ظلمت ركاب السفينة .

ولا ينبغى أن نفهم أو نعتقد أن ما يقتضيه هذا التفوق من استئثار الرجل بالقيادة والرئاسة تفضيل له عند الله على المرأة . اننا اذن نرتكب خطأ كبيرا . بل هو التنظيم المحكم الدقيق والتوزيع السليم العادل للمسئوليات والواجبات . فيروى أن نساء المدينة بعثن بأسماء بنت يزيد الأنصارية الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون اليه حرمانهن مشاركة الرجل فى الجهـــاد والاستشهاد فقالت له :

« بأبى أنت وامى يا رسول الله أنا وافدة من النساء اليك وما من امرأة كانت فى شرق أو غرب سمعت بمخرجى هذا أو لم تسمع الا وهى على مثل رأيى . أن الله بعثك الى الرجال والنساء فآمنـــا بك واتبعناك . ونحن معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم وحاملات أولادكم . وأنتم معشر الرجال فضلتم علينـــا بالجمع والجماعات وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج وأفضل من ذلك كله الجهاد فى سبيل الله . وان الرجل منكم اذا خرج حاجا أو معتمرا أو مرابطا حفظنا لكم أموالكم وغزلنا لكم أثوابكم وربينـــا لكم أولادكم . أفما نشارككم فى هذا الخير يا رسول الله » فقال لهـــا الرسول صلى الله عليه وسلم :

((انصرفى يا أسماء وأعلمى من وراءك من النســـاء أن حسن معاشرة احداكن لزوجها وطلبها لمرضاته واتباعها لموافقته يعدل كل ماذكرت)) (١) .

وهذا الحديث الشريف يشير الى الحقائق التالية :

---

(١) رواه البزار والطبرانى .

١ ـ الاسلام يأخذ بمبدأ التخصص فالمرأة لهـا ما ذكرت أسماء بنت يزيد الأنصارية والرجل له ما وراء ذلك . ونضيف هنا قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « **اعملوا فكل ميسر لما خلق له** » وقد اثبتت تجربة الانسان عبر تاريخه الطويل أن التخصص هو السبيل الوحيد للاجادة والاتقان وأن الخروج عليه شطط وضياع .

٢ ـ ان المفاضلة عند الله سبحانه وتعالى ليست فى نوعية العمل بل فى أسلوب ادائه ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ثواب الأعمال التى تقوم بها أسماء بنت يزيد وغيرها من نساء المدينة يعدل ثواب الأعمال التى يقوم بها الرجل وفيها الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله .

٣ ـ ان رياسة الأسرة حق للرجل ولا يجوز التمرد عليه . وأن على الزوجة أن تحسن معاشرة زوجهـا وتطلب مرضاته . وقد بينا من قبل كيف أن الاسلام عمل على ترشيد هذه الرياسة وحمايتها من نزوع النفس الى التسلط والاستعلاء . وغاية هذه الموازنة خلق الجو الصالح للعمل المبدع وللحياة الزوجية السعيدة .

وقد اقتضى كمال التشريع فى الاسلام الا يجعل لولاية الرجل على المرأة سلطانا على حق ملكية الزوجة . فقرر لها حرية كاملة فى أن تملك وأن تتصرف كيفما تشاء فيما تملك . بينما الزوجة فى أوربا محرومة من هذه الحرية ولا تستطيع أن تتصرف فيما تملك الا باذن زوجها مهما تفوقت عليه علما واجتماعا ومهما كان لها من شأن وخطر بين قومها . كما أنها عند الزواج تضطر الى ترك الانتساب الى قومها ، وتنتسب الى قوم زوجها ، ويتغير لقبها وكنيتها تبعا لذلك .

الفصل الثالث

مفهوم تحرير المرأة فى مصر

ما هو المفهوم الذى تأثرت به حركة تحرير المرأة فى مصر وسارت على دربه ؟ أهو المفهوم الوثنى أم هو المفهوم الاسلامى ؟

لمعرفة الاجابة الصحيحة على هذا السؤال يجب الرجوع الى مصادر يقينية لا يرقى اليها شك ولا تقبل أدنى قدر من الجدل . وقد حصلت على ثلاثة منها أولها محاضرة السيدة هدى شعراوى التى القتها فى قاعة يورت التذكارية بدار الجامعة الأمريكية بالقاهرة يوم الجمعة ١٩٣٥/١١/١٥ والتى أشرت اليها فى الفصل الأول — وثانيها : بعض مقالات وتعليقات نشرت فى الصحف ، أما المصدر الثالث : فهو محضر « ندوة المرأة وأجهزة الاعلام » المتفرعة من الدورة الثانية للجنة المرأة العربية . ونوجز كلامها فيما يلى :

١ — محاضرة السيدة هدى شعراوى :

قالت السيدة هدى شعراوى فى محاضرتها تلك :

« ولولا أن الخديو اسماعيل خشى من أن يحدث تطور المرأة السريع ضجة ومقاومة من رجال الدين فى ذلك الوقت لأعطى المرأة المصرية فى عهده ، حرية تفوق الحرية التى تتمتع بها الآن . ولنهضت البلاد الى الدرجة التى كان يصبو اليها من رقى وتمدين » (١) .

---

(١) رجال الدين تعبير غير اسلامى وصحته علماء الاسلام .

وقالت ايضا فى ختام محاضرتها :

« يستنتج مما تقدم أن المرأة الشرقية لم تنل شيئا من حقوقها الا عقب نهضة وطنية أو حركة فكرية لمعاونتها للرجال فيهما حيث تظهر فى غضون ذلك التعاون قوتها الكامنة وتتجلى مواهبها الفطرية التى يجهلها الرجل متأثرا بصورة المرأة المشوهة التى طبعتها فى وهمه العصور المظلمة والتقاليد الجائرة . كما تحققنا أن كل أمة تشارك المرأة فيها الرجل اشتراكا عمليا هى أكثر الأمم نشــاطا وانتاجا لاستغلال نصفها الذى كان مشلولا . ولما للمرأة من اثر فى بث روح الحماسة والغيرة بين أفراد الأمة » .

فتطور المرأة اذن كان يقاومه علماء الاسلام وهذا يعنى أنه لم يكن ملتزما بأحكام السلوك الاسلامى ويعنى كذلك أن نهــوض البلاد وتقدمها ورقيها مرتبط بهذا التطور غير الاسلامى .

والقول بأن كل أمة شاركت فيها المرأة الرجل مشاركة عملية تضاعف نشاطها وانتاجها لاستغلال نصفها الذى كان مشلولا يعنى أن هدف تحرير المرأة العمــل جنبــا الى جنب مع الرجل ورفض القيمة الخالدة لأدوار الزوجية والأمومة وادارة اقتصاد الأسرة .

٢ ــ مقالات وتعليقات الصحف :

(أ) فى حديث للدكتورة عائشــة راتب وزيرة الشــئون الاجتماعية نشرته الأهرام يوم ١٩٧١/١١/١٣ قالت :

« تحرير المرأة يعنى أن يخلق المجتمع فيها الاحساس الذاتى بالمسئولية تجاه عملها وبيتها ووطنها . كذلك تحرير المرأة يعنى أن توجد فيها القدرة على التفرقة بين كونها امرأة وامرأة عاملة »

وقالت عن مظهر التحرر الذى تقصده :

« أن تصل المرأة الى أن تسهم فى أعمال لم يكن متصورا ان

تسهم فيها من قبل . مثلا عندما زرت الاتحاد السوفييتى وجــــدت النساء هناك يقمن بكل الأعمال حتى تقليم الأشجار وفى يوغوسلافيا وجدتهن يشاركن حتى فى بناء الكبارى والعمارات . هـــــذه هى المشاركة التامة فى الحياة العملية التى تثبت أن المرأة فى تلك البلاد متحررة . ومعنى التحرر اليوم ليس هو المعنى القـــديم لسنوات الأربعينات والخمسينات . وانما يعنى ان تتخلص المرأة من كافـــة القيم القديمة والعادات البالية لتستطيع أن تنطلق مع العصر الحضارى الحالى الى ابعد ما تستطيع أن تنطلق . والمرأة العربية اليوم عليها أن تثبت أنها جديرة بأن تكون والا فلن تكون » .

يمكن أن نستخلص من حديث الدكتورة عائشة راتب الحقائق الآتيـــــة :

١ ــ ان تحرير المرأة يعنى افساح المجال امامها لتحمل قسطا من المسئولية عن العمل فى مختلف القطاعات بالاضافة الى مسئوليتها عن العمل فى البيت مع تأكيد قدرتها على الموازنة بين المسئوليتين .

٢ ــ أن مما يدعم تحرير المرأة اصرارها على مشاركة الرجل فى الأعمال البدنية الصعبة مثل بناء الكبارى والعمارات وتقليم الأشجار .

٣ ــ ان تحرير المرأة يقتضى التخلص من كافة القيم القديمـــة والعادات البالية لأنها تعوق انطلاق المـــرأة مع العصر الحضارى الحالى الى ابعد ما تستطيع ان تنطلق .

ولعل أخطر ما فى حديث وزيرة الشئون الاجتماعية ربط تحرير المرأة فى مصر بالتخلص من كافة القيم القديمة والعادات الباليـــة . لأن تعبير كافة القيم القديمة ينصرف الى القيم الاسلامية التى عاشت فى مجتمعنا منذ الفتح الاسلامى والتى حكمت بدرجات متفاوته سلوكنا عبر قرون عديدة . أما العادات البالية فأعترف أن فيها ما يناقض

الدين وان التخلص منها لا يكون الا بالقضاء على الامية الدينية .

ب ــ نشرت مجلة حواء فى عددها الصادر فى ١٩٧٣/٣/٣ تحت عنوان « بين التحرر والسيطرة » مقالا ترد فيه على مواطن موظف جامعى كتب للمجلة يقص عليها كيف تحولت زوجته المثقفة المتفاهمة المتساهلة فى كثير من الأحيان الى السيطرة والاستبداد والتعسف ــ تقول المجلة فى بداية المقال :

« التحرر بمعناه الأصيل الواسع هو غاية نضال المرأة ــ وهو ما كافحنا وما زلنا نكافح من أجل تحقيقه وأرساء قواعده السليمة . فبكل ما نملك من قوى نحارب عبودية المرأة وسيطرة الرجل التعسفية من أجل الوصول فى النهاية الى بلورة العلاقة بين الرجل والمرأة على ضوء المفاهيم العصرية . وبما يكفل حقوقها الانسانية ويجعل لها كيانا له استقلاله واحترامه » .

وتقول المجلة فى فقرة أخرى من المقال :

« فان تتحرر المرأة وتحصل على كافة حقوقها لا يعنى على الاطلاق أن تلعب فى الحياة وفى العلاقات الخاصة نفس الدور الذى كان يلعبه الرجل . وأن ما نرمى اليه هو أن تظل المرأة محتفظة بطابعها الأنثوى حتى وهى تملك كل حقوقها . والمرأة السوية الشخصية مهما بلغت من العلم والثقافة والمركز ومهما تمكنت من حقوقها فهى تحرص كل الحرص على أن يكون لشريكها منزلة ورأى وأن يكون بحكم رجولته وقوته وشهامته المسئول والحامى والموجه الذى لا يقلل من شأنها ولا ينفى حقوقها أن تسترشد برأيه وأن تنفذ رغبته وأن تطلب معونته » .

والمجلة برأيها هذا تسعى أو تدعو الى موازنة فى العلاقة بين المرأة المتحررة على النحو الذى أشارت اليه والرجل وهى موازنة صعبة وان لم تكن مستحيلة . لأن هذا التوازن يتطلب عقولا مستنيرة

غاية ما تكون الاستنارة كما يتطلب دوافع منضبطه غـــاية ما يكون الانضباط أى انه لا يستطيعه الا الانسان الكامل وهو غير موجود الا فى خيال الفلاسفة .

٣ ـ ندوة المرأة وأجهزة الاعـــــلام :

هذه الندوة نظمتها لجنة المرأة العربية ــ احدى نشـــاطات ادارة الشئون الاجتماعية بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية ــ وقد انعقدت بالقاهرة بمقر الجامعة يوم الاثنين ١٩٧٣/٢/٢٦ وكان موضوع النـــدوة « نظرة المجتمع الى المرأة من خـــــلال أجهزة الاعــــلام » .

وقد أعدت ادارة الشئون الاجتماعية ورقة عمل للندوة من أهم ما جاء فيها :

أ ــ « لذلك فان اثر اجهزة الاعلام فى تكوين عقيدة المجتمع تجاه أمر معين أو تحديد نظراته الى قيم معينة أمر غير منكور . بل ان أجهزة الاعلام قد استطاعت مع تنوع اساليبها وتقدمها أن تفرض على المجتمع أوضاعا معينة وان تحمل الأفراد على اتخاذ موقف محدد حتى ولـــو كانوا فى الأصل غير راغبين فيه . أو كانت تقاليدهم وخلفياتهم الثقافية والاجتماعية تفرض عليهم اتخـــاذ مواقف أخرى ربما تكون مخالفة تماما لمـــا استطاعت أجهزة الاعلام أن تفرضه عليهم » .

ب ــ « فالمرأة ليست مجرد فئة من فئات المجتمع ولا هى عنصر من عناصره ولكنها تمثل نصف المجتمع وتعتبر مسئولة الى حد كبير عن تنشئة ورعاية نصفه الآخر أو هى مؤثرة على أقل تقدير فى مسلك هذا النصف الآخـــر وتصرفاته . حتى انه لمن الممكن القـــــول بشىء من

المبالغة بأن المرأة تمثل المجتمع بأكمله نصفه بالاصالة والنصف الآخر بالوكالة » .

جـ ــ « فاذا صورت المرأة دائما بأنها وراء كل انحراف ــ ولقد كان هذا التصوير بنصه وحرفه عنوانا ضخما فى احدى الصحف اليومية ــ فان المجتمع معذور اذا وقر لديه اعتقاد بأن المرأة فعلا وراء كل انحراف . واذا عالج برنامج من أنجح برامج التليفزيون ــ استنادا الى الاصرار عليه لسنوات طويلة ــ مشكلة العادات والتقاليد وجعل المرأة فيه دائما مثالا صارخا للسفه وسوء التصرف والتوبة العارضة التى لا تلبث أن تنقض . فان المجتمع ممثلا فى جموع المشاهدين يمكن أن يعتاد فى يسر النظر الى المرأة على هذه الصورة . واذا ركزت العديد من المسلسلات الاذاعية على صورة المرأة التى تتحكم فى رجال القرية وتجعل منهم القتلة وتجار المخدرات فان المستمع لابد وأن تغلب عليه صورة المرأة على هذا النحو » .

وليس من شك فى أن المرأة تشكل نصف المجتمع وأنها مسئولة الى حد كبير عن تنشئة ورعاية نصفه الآخر ومؤثرة تأثيرا كبيرا فى مسلكه وتصرفاته . ومن ثم لا تكون ورقة العمل ــ وهى تعترف بهذه الحقيقة ــ منصفة حين تعترض على أجهزة الاعلام اذا عملت على وضع مسئولية المرأة فى مكانها الصحيح . ولا يعنى هذا اعتقادى فى أن تلك الأجهزة تؤدى رسالتها اداء حسنا . وانما هو الاشارة الى تناقض كبير فى فقرات ورقة العمل التى تضرب مثلا بأحد البرامج القليلة الجيدة الهادفة وهو برنامج « عادات وتقاليد » . فلا يهم عند واضعى ورقة العمل أن يكون البرنامج جيدا وهادفا ولكن المهم عندهم أن تكون صورة المرأة طيبة ومشرقة . وقد فاتهم أن

اجهزة الاعلام تهتم فى أداء رسـالتها بالرقابة والنقـد اكثر من اهتمامها بالجيد من الأعمال . تلك طبيعة اجهزة الاعلام فى المجتمعات النامية المثقلة أقدامها بقيود التخلف الاقتصادى والاجتمـاعى والفكرى .

ولقد انعقدت الندوة فى مساء الاثنين ١٩٧٣/٢/٢٦ برئاسـة الدكتورة عائشة راتب وزيرة الشئون الاجتماعية وحضور السيدات اعضاء لجنة المراة العربية وبعض المدعوين على رأسهم الدكتـور اسماعيل صبرى عبد الله وزير الدولة للتخطيط وليس بينهم واحد من علماء المسلمين او رجال الكنيسة وسنرى بعد قليل أن السبب فى عدم دعوتهم للاشتراك فى الحوار يرجع الى اعتبارهم اصحاب فكر رجعى متخلف .

والباحث فى الكلمات التى ألقيت فى الندوة عن مفهوم تحـرير المراة فى مصر يلاحظ اجماعا أو ما يشبه الاجماع على أن من اهـم مقومات تحرير المراة أن تقوم بنفس الأعمال التى يقوم بها الرجل وان تكسب كما يكسب حتى تستطيع أن تخلع نفسها من سـيطرته واستبداده . كما يلاحظ رغبة ملحة فى تسخير اجهزة الاعلام لخدمة حركة تحرير المراة داخل المفهوم الذى تؤمن به الحركة والقائمـات بأمرها . وكانت السيدة أمينة السعيد رئيسة تحرير مجلة حواء اشد المتكلمين والمتكلمات وضوحا حين قالت :

« لذلك يجب أن يترك فى يد المتقدمين فكرا وليس المتخلفين فكرا وليس المطالبين بتقصى اثر السلف الصالح ... ولكن لا استطيع أن أدفع الصحافة الى هذا الجزء القليل المتخلف الذى يقف فى سبيل تقدم المراة بدعوى التمسك بمبادىء السلف الصالح فى كل شىء » .

« هناك دعوة الى أن تلجأ وسائل الاعلام الى طرح قضايا المراة موضع الحوار . انا فى الواقع لا أوافق على هذه الفكرة وضد وضع قضايا المراة موضع الحوار لأننى بالخبرة وجدت أن هذا الحوار غير

مجد بسبب تدخل عناصر ممثلة للافكار القديمة البالية التى لا تساعد المرأة على التحضر مطلقا . الحوار يرهقنا بسبب هذه السلبيات التى تعوق كل تقدم للمرأة ولو كان الأمر بيدى ما سمحت لأهل الفكر القديم أن يعالجوا شئون المرأة ونحن فى بلد يسعى الى الحضارة ولا يسعى الى التخلف أو المحاولات التى تبرر الواقع المرير الموجود هنا . وحينما تكون مشكلة يتقدم هؤلاء بأفكار ليست لها دلالة حضارية » .

« كل ما أتمناه أن تكون هناك خطة للرقابة الحازمة ليس على المؤلفين لأن المؤلف يستطيع أن يصيغ أى شخصية بعيدا عن الصورة الأصلية . ولابد أن تكون هناك خطة حضارية ولا أوافق أن تطرح قضايا المرأة للحوار أذا كنا نستهدف تقدمها لأن الحوار اما أن يقتصر على أهل الفكر المتقدم واما لا يطرح نهائيا . والدليل مسألة تحديد النسل . أهل الفكر المتخلف نسفوا كل الجهود التى قامت بها الحكومات والهيئات فى سبيل توعية الناس بكلمتين بأن قالوا هذا عمل غير دينى » .

أعتقد أنه يمكن بعد هذا البيان الحكم بثقة واطمئنان على حركة تحرير المرأة فى مصر بأن المفهوم الغربى الوثنى يحكمها فكرا وسلوكا . وشاهدى على سلامة هذا الحكم ذلك الأسلوب الهابط الذى استخدمته السيدة أمينة السعيد فى التعبير عن رأيها . فقد كان لزاما عليها — وهى الكاتبة العتيدة والصحفية الواعية — ألا تدوس بقدميها حرية الرأى وترفض الحوار النزيه وأن لا تتطاول على مقامات السلف الصالح الذين لا يمكن أن ترقى هى وكل من على شاكلتها الى مواطىء اقدامهم ! .

* * *

الفصل الرابع

تجربة قاسية

ان حركة تحرير المراة الغربية سابقة على مثيلتها فى مصر . فالأولى بدأت فى أواخر القرن الثامن عشر والثانية بدأت فى أواخر القرن التاسع عشر . والأولى سارت فى طريق قليل الوعورة والثانية كان طريقها وما يزال شديد الوعورة . ولذلك حققت حركة تحرير المراة الغربية أهدافها وبلغت المراة غاية ماكانت تحلم به من الحرية والتحرر من سيطرة الرجل وعاشت حياتها منطلقة لا تقف ولا تتحرك الا بارادتها الحرة . انها تعمل وتؤجر على عملها كالرجل تماما . ولم يعد يحكم علاقتها به غير الروابط التى تفرضها « أسرة الصحبة » وربما يكون مزاجها سيد تصرفاتها وحركاتها ... لقد عاشت المراة الغربية التجربة التى نسج خيوطها داروين وفرويد وغيرهما من مفكرى أوروبا الذين ذاع ذكرهم وساد فكرهم ...

فماذا كانت النتيجة ؟ .

ما ينشر فى الكتب والمجلات والصحف عن المراة الغربية المعاصرة يساعد على ادراك المصير المحزن الذى انتهى اليه حالها وحال الأسرة فى المجتمعات الغربية . وسأعرض هنا واقع حياة المراة فى بعض الدول الغربية :

(١) المرأة فى السويد :

نشرت صحيفة أخبار اليوم فى عدد السبت ٢٥ اكتوبر ١٩٦٩ مقالا بعنوان « السويد أو قاع الحرية » للاستاذ الصحفى أنيس منصور نقتطف منه الفقرات التالية :

— ومن أغرب الأرقام فى السويد أن ٨٠ ٪ من الفتيات لسن عذارى عند الزواج .

— وفى كل أسرة فى السويد عندها فتاة فى العشرين من عمرها يوجد شاب صديق لها يأكل ويشرب وينام فى البيت . وكثيرا ما تدور مناقشات بين الأم والبنت وصديقها فى مستقبل العلاقة بينهما . وقد تجىء هذه المناقشة بعد سنة من اقامة هذا الشاب فى البيت .

— وفى السويد من الممكن أن يترك لك الزوج زوجته اذا كنت ضيفا عنده ويرى أن هذا من مظاهر الكرم . ولكن المرأة السويدية تضيق بهذا الموقف لا لأنها تعترض على أن تذهب الى فراش الضيف ولكن لأنها تتصور أن زوجها هو الذى قدمها للضيف . أنها تريد أن تذهب الى فراش الضيف بمحض ارادتها وحريتها لأن الضيف أعجبها وليس بأمر من الزوج : فالزوج لا حق له فى أن يفرض عليها الفراش الذى يعجبه .

— والفرق بين الفتاة السويدية والفتاة الأمريكية أن الأخيرة تجد متعة فى أن تثيرك وتشعل النار فيك . ولكن ليس من الضرورى أن يكون بينكما أية علاقة بعد ذلك .

وأما السويدية فهى تبحث عن الود . عن الصداقة . عن الدفء . أما النار فتجىء بعد ذلك من نفسها . فالأمريكية لعوب والسويدية جادة .

(٢) المرأة فى انجلترا :

نشرت صحيفة الأهرام يوم ١٨ ديسمبر سنة ١٩٦٩ تحت عنوان « حديث الناس » للاستاذ الصحفى على حمدى الجمال أن أحد البريطانيين ضبط زوجه مع صديق له وعرضت القضية على المحكمة المختصة . وقد توجه قاضى المحكمة الى الزوج بحديث قال فيه : « يجب أن تعتاد هذه الأفكار العصرية ... ان مشكلتك أنك عتيق الفكر . لم يعجبك أن زوجتك ضبطت متلبسة مع واحد من أفضل أصدقائك . انك تعيش فى عام ١٩٦٩ » ويعلق الصحفى على حكم القضاء الانجليزى فى هذه القضية قائلا :

« معنى هذا الكلام أن سيادة القاضى يرى أن الانسان لكى يكون عصريا وواسع الأفق ويجارى الوقت الذى يعيش فيه . فعليه أن لا يمانع أن تفعل زوجته ما تشاء مع أصدقائه . واذا كان هذا ما يحدث فى عام ١٩٦٩ فما الذى نتوقع حدوثه فى العام القادم والذى يليه وبعد عشر سنوات ... على هذا القياس فان العصرية تعنى فى نظر البعض انحلالا كاملا للمجتمع وقضاء نهائيا على القيم الأخلاقية ... بالأمس أباحوا الشذوذ الجنسى وأباحوا الأبناء غير الشرعيين الى غير ذلك من الجرائم . وها هم اليوم يطالبون الأزواج بالتغاضى عن خيانة زوجاتهم والله يعلم ما سيطلبون غدا ... اللهم احفظ مجتمعنا من هذه العصرية الجديدة واجعل مناعتنا ضدها قوية صلبة فلقد أخذت هذه الأفكار تنتشر فى العالم بنفس السرعة التى تنتشر بها الأنفلونزا هذه الأيام » .

وقد اهتمت صحفنا بنشر أنباء فضيحة جنس كان بطلها لورد لامبتون وزير الطيران البريطانى ولورد جيلكو رئيس مجلس اللوردات ووزير البحرية ويهمنا من هذه الأنباء ثلاثة نشرتها صحيفة أخباراليوم ونذكرها بترتيب أهميتها :

النبأ الأول : حديث للورد لا مبتون يقول فيه (عدد ١٩٧٣/٧/٧)

« أعتقد أن السبب الوحيد الذى أثار الرأى العام ضدى لم يكن لوجودى فى صحبة بائعات الهوى وانما لأننى عشقت فتاة سوداء من بينهن فلو اقتصر نشاطى على الفتيات الأوربيات وحدهن لما ثار الناس ضدى . لقد أضعت مستقبلى السياسى بسبب هذه السقطة لقد كنت ساذجا عندما ظننت أن علاقتى بتلك الفتاة ستظل فى طى الكتمان . لقد تعرفت عليها وعلى غيرها عن طريق شبكة محترمة لا تتعامل الا مع الشخصيات الهامة والكبيرة ولديها من الوسائل ما يحقق الأمان والضمان والسرية . ولكن شبكة الدعارة التى تعاملت معها كانت دون ذلك المستوى فسقطت فى حبائل نورما ليفى وزوجها الذى قام بتسجيل وتصوير مقابلاتى معها وبيعها للصحف البريطانية وكانت الفضيحة التى كلفتنى مقعدى فى مجلس اللوردات » .

النبأ الثانى : اقتراح من آلان مور أحد شباب حزب المحافظين نشرته أخبار اليوم (عدد ١٩٧٣/٧/٢١) .

يطلب آلان مور من الحكومة البريطانية أن تفتح منزلا يدار للدعارة يكون التردد عليه قاصرا على الوزراء وكبار رجال الجيش والدولة . وتلخص الصحيفة الاقتراح على النحو التالى :

* اهتزت صورة بريطانيا أمام العالم بسبب الفضائح المخجلة التى أنكشفت أخيرا والخاصة بلورد لامبتون الذى التقطت صوره وسجلت أحاديثه فى غرفة خاصة مع بائعات الهوى .

* وسبق أن انكشفت فضيحة أخرى مماثلة منذ ١٠ سنوات هى فضيحة كريستين كيلر التى كانت عشيقة لوزير بريطانى ثم وقعت فى غرام دبلوماسى سوفييتى واستغلها فى الحصول على أدق أسرار بريطانيا .

* وصاحب الاقتراح يرى أنه من المستحيل أن يمتنع كبار المسئولين فى البلد من البحث عن اللهو فى صحبة أجمل الفتيات .

فالمسئول من البشر من السهل جدا أن يضعف عندما يتقابل مع فتاة جميلة ومن الصعب جدا أن نطالبه برفض دعوة لتمضية سهرة وردية مع مانيكان أو مع نجمة سينما .

* ومن المؤكد أن نسبة لا تقل عن ٧٥ ٪ من المسئولين لهم علاقات خاصة وحياة ليل لا يعرف أسرارها غيرهم . أو هكذا يحاولون . كما أن الـ ٢٥ ٪ الباقية من المؤكد أن أصحابها لم يعرفوا حياة الليل ليس زهدا فيها وانما لعدم وجود الفرصة أو لخوفهم من انكشاف أمرهم .

* وأصحاب حياة الليل من كبار المسئولين يقعون دائما فريسة بين يدى بائعات الهوى اللاتى يعملن غالبا لحساب أجهزة **مخابرات أجنبية ومعادية . . . وبالتالى تتساقط أسرار الدولة الواحد** بعد الآخر . . عندما يفقد المسئول اتزانه . وتنحل عقدة لسانه تحت تأثير الخمر والجنس .

لكل هذه الأسباب والمبررات يطالب الان مور بأن تواجه الحكومة البريطانية هذه الحقيقة بشجاعة وتقدم على علاجها بحل أكثر شجاعة وهو افتتاح منزل يدار للدعارة ويختلف فى ادارته وتشغيله عن باقى دور الدعارة التقليدية . فالمنزل المقترح يكون خاصا بكبار رجال الدولة . ولا يسمح لغيرهم بدخوله أو التردد عليه . ولم يكتف صاحب الاقتراح بذلك وانما قدم المزيد من خطوات التنفيذ منها :

— تتولى ادارة المخابرات البريطانية اختيار مكان هذا البيت. وتتولى أيضا اختيار مجموعة الفتيات اللاتى يعملن فيه .

— يمكن للوزير والقائد العسكرى الكبير أن يتردد على هذا البيت الأنيق بمنتهى الحرية . بلا خوف من افتضاح أمره . بلا حاجة الى توتر أعصابه عند دخول بيت الدعارة أو الخروج منه . **فجميع هذه الخطوات تتم تحت اشراف المخابرات البريطانية .**

ـــ وبذلك يمكن ضمان الاحتفاظ بسرية الدولة وضمان عـــدم وقوع المسئول فى حبائل عملاء اجانب أوقعوا به عن طريق فتـــاة جميلة خائنة لوطنها .

ـــ كما أن هذا الاقتراح سوف يسعد المسئول البريطانى .

انتهى الاقتراح وبدأت الضجة حوله :

** البعض رفض الفكرة ووصفها بأنها فكرة سخيفة وغير لائقة بحكومة المحافظين .

** والبعض الآخر رحب بها وقال ان الدولة لن تحرم من مواهب وخبرات شخصيات كبيرة وسياسية مثل انتونى لامبتون ولورد جيليكو وغيرهم .

** والمتحمسون للفكرة قالوا ان فرنسا اخذت بها منـــذ فترة . ففى باريس ينتشر عدد من تلك الدور الخاصة جدا والتى يتردد عليها الصفوة .

** والولايات المتحدة سبقت فرنسا فى هذا المجال فهناك فتيات يعملن باشراف وكالة المخابرات المركزية ولا يســـمح لهن بالاتصال بأى (زبون) بما فيها الأراء المؤيدة والأراء المعارضة . الا عن طريق الوكالة . فهن مخصصات لكبار رجال الدولة .

وقد نشرت صحيفة الأهرام ايضا انباء هـــذه الفضيحة يوم ١٩٧٣/٥/٢٦ وفى الأيام التالية جاء فيها أن عـــدد الوزراء الذين اشتركوا فيها بلغ اربعة كما اشترك فيها دوق وقاضية وشخصية كبيرة فى التليفزيون .

النبــأ الثالث : نشرته أخبار اليوم فى ١٩٧٣/٦/٩ تقول فيه :

« أعرب ٥٩ ٪ من البريطانيين عن اقتناعهم بأن الحيـــاة

الشخصية للسياسيين أمر لا يهم أحدا آخر . وقال ٥٥٪ منهم انه ليس من الضرورى استقالة الوزير لأنه قام بعمل شخصى ما دام لم ينتهك القانون » .

عندما قرأت هذه الفضيحة لم أهتم بها لأنها تساعد على ادراك الحالة التى وصل اليها الشعب البريطانى وحسب ولكن لأنها ذكرتنى على الفور بحماقة فيلسوف الأغريق الشهير أرسطو الذى زعم أن الشباب الأرستقراطى يعمل الفضيلة لذاتها ويأتى الخير ويتجنب الشر لا رغبة فى مكافأة أو رهبة من عقوبة ولكن لأن نفوسهم نشأت مستعدة للخير وترعرعت بين أعطاف النبل والشرف .

وليست دلالة حديث لورد لامبتون قاصرة على تسرب الانحلال الى أعلى مستويات المسئولية وقمة الطبقات الاجتماعية بل تكشف عما وصل اليه الجنس من شيوع وانتشار تنظمه وتستغله منظمات أو شبكات استمتع اللورد بخدمات اثنتين منها .

ويلفت اقتراح الشاب المحافظ الأنظار الى أن هذه الفضيحة ليست الأولى فى نوعها ويذكر المسئولين بفضيحة كريستين كيلر عشيقة أحد الوزراء البريطانيين منذ عشر سنوات . كما يؤكد أن ٧٥ ٪ من المسئولين لهم علاقات خاصة وحياة ليل . وتقول اخبار اليوم أن البعض رفض الاقتراح ووصفه بالسخف والبعض الآخر رحب به وقال أن فرنسا أخذت به . وأن الولايات المتحدة الأمريكية سبقت فرنسا فهناك فتيات يعملن تحت أشراف وكالة المخابرات .

(٣) المرأة الأمريكية :

فى العدد ١٠٤ من مجلة كتابى الشهرية الصادر فى يوليو سنة ١٩٧٠ تعريف بالكاتب الامريكى « جون اب دايك » كواحد من أعلام الأدب العالمى المعاصر وركزت المجلة فى حديثها عنه على قصته المسماة « أزواج وزوجات » لأنه قصد فيها تعرية المجتمع الأمريكى

بأن كشف ما تحت مظاهر المدنية والحضارة من انحلال فاق الانحلال الذى أودى بالأمبراطورية الرومانية فى الماضى .

وقعت أحداث القصة فى « ماساتشوستس » حيث تتكشف بدائية الديمقراطية الأمريكية — كما تقول المجلة — بصورة عجيبة شاذة تتمثل فى علاقات أزواج وزوجات بلدة « تاربوكس » الذين انغمسوا فى كتلة سوداء من الجنس المستباح .. ويكشف المؤلف فى غير مواربة عن غايته فى تعرية المجتمع الامريكى الذى أصابه الانحلال بدرجة لم يسبقها مثيل فى التاريخ فغرق فى أوحال الجنس لا تردعه أخلاق ولا مثاليات ولا ضمير . ويقول « آب دايك » لقد كثر الحديث القاسى عن أن الحب والجنس أصبحا القاعدة الجديدة لمبادئنا الأخلاقية فأردت أن أوضح هذه القاعدة لأتساءل هل هى شىء مرغوب فيه بالفعل ؟ ثم سلط الأضواء على المجتمع فاذ بكل زوج على علاقة آثمة بزوج رجل آخر . « تبادل بين الأزواج والزوجات » .

ومؤلف القصة — كما تقول المجلة — يؤمن بأن ماضى أمريكا كان يتسم بالجوهر الطيب والصلاح الشامل . ثم قدر لهذا الماضى أن يتبخر الآن وذهبت معه الفضائل . ولكن « اب دايك » لا يرى أن هذا الضياع الكامل نكبة ماحقة . وانما يراه مرحلة من التجربة الأمريكية ودائما يجب أن يؤدى الى الكمال . وقد أراد الكاتب انذار قومه قبل انهيار مجتمعهم حين اختار لقصته موضوع الضلال الذى ساد الحضارة الأمريكية حتى أصبح المجتمع الأمريكى اليوم شبيها بالمجتمع الرومانى عند انهيار الامبراطورية . مع فارق واحد هو أن الرومان كانوا يحاولون الخروج من جحيم اللذة فى حين أن الامريكيين يحاولون الانغماس فيه ... ولقد اتخذت أبطال الرواية الجنس وممارسته عن طريق تبادل الأزواج والزوجات — كما فعل الرومان من قبل — ملهاتهم ومتعتهم وداءهم وعلاجهم وأملهم وخيبتهم وثأرهم ومخدرهم وسبيلهم الأوحد للفرار من الملل ووسيلتهم الوحيدة للتقارب والتعاطف ودرعهم الأوحد ضد الشعور بأن الموت قادم .

وإذا كان هذا الأديب « جون آب دايك » قد استغل مواهبه — قلمه وفنه وخياله — فى رسم لوحة دقيقة معبرة عن حياة المجتمع الأمريكى المعاصر — فان المجتمع قد عبر عن نفسه بعد ذلك تعبيرا يعجز عن محاكاته دقة وجراة أبرع واعظم كتاب هذا الزمان . ففى يوم من ايام عام ١٩٧٠ سلطت الأضواء على ساحة القضاء فى احدى المدن الأمريكية لمحاكمة زعيم الهيبز وبعض اتباعه على عـــدد من جرائم القتل اتهموا بارتكابها . ولقد نشرت جريدة الجمهورية على صفحاتها ثم فى كتاب الجمهورية يوميات مانسون زعيم الهيبيز متناولة تفاصيل ما دار فى جلسات المحاكمة التى كشفت عن التواضع الذى التزمه الأديب « أبديك » وهو يقدم لقرائه صورة مخزية للمجتمع الامريكى المعاصر .

ومع أن منهج هذه الدراسة يفرض على أن انقل للقـــارىء الكثير مما جاء فى تلك اليوميات الا أن اعترافات المتهمين زاخـــرة بفاحش القول وهو الأمر الذى تأباه لغة القرآن الكريم ويرفضه خلق الاسلام . ولذلك أكتفى بالاشارة الى أن يوميات مانسون نشرت بالعدد ٢٧ من كتاب الجمهورية .

ولقد أتيح لصحفى مصرى أن يقوم بدراسة واعية للمجتمـــع الأمريكى وأن ينشر دراسته ومشاهداته فى عدد الجمهورية الذى صـــدر يوم الخميس ١٩٧٢/٨/١٠ تحت عنوان « أيام فى نيويورك الغابة المتمدينة » أنقل فيما يلى بعض فقراتها :

المجتمع الامريكى مجتمع عجيب ... فيه من يملكون كل شىء وفيه من لا يملكون أى شىء مجتمع خلقت منه السياسة والاقطاع والدولار عالما من عبدة المال ... عالم كله فسق والحاد وانحـــلال ومجون ... وأصبح الانسان الامريكى العادى مجرد آلة تعمـــل وتعيش بالتقسيط ... صحيح أن الفرد هناك يملك المنزل والسيارة (آخر موديل) والتليفزيون الملون وجميع وسائل الحياة الحديثة ولكن بالديون لأصحاب شركات الاحتكار والمال والتجارة .

فمثلا هناك شركات تعلن فى الصحف والتليفزيون وبصفحات كاملة (استلم سيارة بدون أن تدفع مليما واحدا وكل ما هو مطلوب رقم حسابك فى البنك واسمك بالكامل ورقم بطاقة العمل) وتكون النتيجة ... الديون والأقساط التى لا تنتهى .. حتى دفن الموتى عندهم بالتقسيط المريح وتكون النتيجة أن تتضخم أموال الاحتكاريين وأصحاب رؤوس الأموال فيغرقون الأسـواق كل يوم بمخترعات جديدة وآلات حديثة وأفكار جديدة فتغرق معها الأسر فى بحر من الديون والأقساط التى ربما طالت لعشر أو لعشرين سنة .

مشغول دائما : ومن هنا فان الرجل الامريكى اصبح مشغولا دائما ... بالسيارة الجديدة .. وبالمنزل الجديد .. ولذلك فهـو يعمل من الثامنة والنصف صباحا .. حتى الخامسة مساء ليتمكن من تسديد الديون والأقساط ... لدرجة قتلت فيه المشاعر الانسانية والروابط الأسرية .. فهو وحيد بين أسرته واذا فتح الجريدة فانما ليقرأ الأسعار والاعلانات وأخبار الجرائم والقتل واذا جلس أوقات فراغه أمام التليفزيون فانما ليشاهد الكرة وأفلام القتـل والجنس والاعلانات ويسجل أرقام تليفونات البائعين ليشترى ويبيع ويدفع ويعلن تفليسته وهكذا تجده بعيداً عن العالم الخارجى .. وبعيدا عما يجرى فى الأمم المتحدة — وهى على بعد أمتار منه — وبعيدا عن السياسة فى الخارج والداخل ومشغول بنفسه عن نفسه .

وأما عطلة نهاية الاسبوع فمن الأسر الامريكية من تذهب الى الأرياف أو الى (المزادات) وهناك يعشقون المزادات ونشاهد فى أعداد يومى السبت والأحد من صحف نيويورك حوالى عشرين صفحة اعلانات عن المزادات ... فيأخذ الامريكى سيارته ودفتر الشيكات ويتجول من شارع الى آخر ومن مدينة الى مدينة وراء قلم حبر نادر او صورة ملونة أو تمثال مغشوش . ومن الطريف أن هناك بعض المزادات بالتقسيط أيضا . اى ادخل المزاد واشتر ما تريد وادفع

مؤخرا ولا تظن انك ستهرب ... فلابد أن تدفع اليوم ... أو غدا المهم انك ستدفع ...

ومعظم الأسر الامريكية مشغولة عن أمريكا بحياتها ... ومشغولة عن العالم بمشاكلها وأفراد الأسرة كل فى عالمه الخاص ... الأب ... لا يعرف أين زوجته ... والزوجة لها عملها ومشاغلها واصدقاؤها وحفلاتها الخاصة ... والبنت بعد الثامنة عشرة تعيش حياتها بعيداً عن الأسرة وبمفردها ... والابن يترك المنزل والمدرسة ليعمل بالثانوية فالتعليم الجامعى نفقاته باهظة ولا يمكن أن يتحمله اى أب امريكى دخله السنوى حوالى ١٥ الف دولار ولذلك تجد الآباء يطردون أولادهم بعد الثامنة عشرة فعليه أن يعمل ليعيش وأن يلتحق بالجامعة مساء اذا أراد وعلى نفقته .

ولذلك فان الأسرة الامريكية متفككة منحلة ملحدة لا تعرف الدين ولا العبادة ... حتى الكنائس بيعت بالمزاد ففى ولاية نيوجرسى وحدها يوجد أكثر من ٥٠٠٠ كنيسة بيع منها ٦٠٠ كنيسة بالمزاد العلنى .

الخوف من الشيوعية : والأولاد لا يتعلمون الدين فى المدارس الغيت مادة الدين وتركت للأسر وللعائلات فكانت النتيجة الانحلال لعدم وجود الحافز والخوف من الله ... الاباء أنفسهم لا يعرفون الدين تخرج الأبناء ملحدين أو مسيحيين اسما ... وحتى الديانة لا يكتبونها فى شهادات الميلاد أو الباسبورت أو البطاقة العائلية .

ولمواجهة هذه الموجات من عدم التمسك بالدين قامت الدولة باصدار قانون جديد وهو أن كل من ينتمى الى عقيدة أو كنيسة أو دين فان الدولة تعفيه من الضرائب الباهظة بنسبة ٣٥ ٪ فكانت النتيجة ان معظم اقطاعى أمريكا وكلهم من الصهاينة راحوا يسجلون اسماءهم فى دور العبادة اليهودية ويتبرعون لاسرائيل كجهة دينية ... الأمر الذى اصبحت به التبرعات الى اسرائيل تصل الى ملايين

الدولارات سنويا لا حبا فى اسرائيل بل هروبا من الضرائب وأما هدف الدولة من التمسك بالدين فلا حبا فى الدين بل محاولة لمحاربة الالحاد وبالتالى خوفا من الشيوعية .

وحتى الزواج أصبح لا يعقد فى الكنائس بل عند المسجل أو العمدة ... وأصبحت الأسرة الأمريكية يضرب بها المثل فى الانحلال الخلقى .... وتتعجب عندما تعرف أن هناك ٢٥ مليون فتاة وسيدة أكثر من عدد الرجال ... ولذا كانت هناك أزمة زواج وأزمة طلاق ... فبين كل خمس سيدات واحدة مطلقة وكل مطلقة تعيش حياتها كما تريد والقانون يحميها طالما لا ترتكب الجنس خارج منزلها .

افعل ما تشاء ... بعيدا : وعلى الرغم من قوانين تقييد الطلاق العنيفة التى أصدرتها الدولة وهى تنص على أن كل مطلقة لهــا الحق فى نصف ممتلكات زوجها ونصف دخله مدى الحياة وعلى الرغم من هذه القوانين فان الطلاق زاد زيادة تهدد المجتمع الامريكى ... لأن المرأة الامريكية متمردة بطبعها ... جنسية بطبيعتهــا ... مغرورة ... متعجــرفة ... منحــلة ... لا تؤمن بالمثــل ولا بالأخلاقيات ... فتسعى للطلاق لكى تعيش حياتها مطلقة وبنصف دخل الرجل مدى الحياة .

لا تخرج وحدك : ولم أصدق نصيحة أحد المصريين هناك عندما قال لى : (احذر الخروج ليلا الا مع جماعة والأفضل داخل سيارة مغلقة وفى أول ليلة خرجت فيها فى نيويورك وقبل غروب الشمس وفى ميدان جورنال سكوير شاهدت شابا يطعن فتاة بمطواة طعنات جريئة واثقة .. وتفت متبلدا بلا حركة .. فكل أحاسيسى توقفت عن الحياة .. فقدت الشعور تماما للحظات وخيل الى أننى أشاهد فيلما أمريكيا وفجأة جذبنى صديقى المصرى قائلا : ان هذه الجرائم عادية جدا .. فسيحضر البوليس بعد هروب القاتل .. وربمــا يسوقنا أمامه بتهمة القتل . وتشبثت الفتاة بالهواء .. ثم تمايلت وسقطت أما الفتى فقد مسح الدم عن المطواة .. وبكل هدوء شق

طريقه بعيدا .. لا أحد يقف .. ولا أحد يسأل .. لا أحد ينقذ وقرأت فى جريد الصباح أخبار جريمة ميدان جورنال سكوير .. والقاتل مجهول ..

اين بوليس نيويورك ؟ اين الحرية فى بلاد العم سام ؟ وأين المدنية والحضاره ؟ .

أعتقد أنك الآن عرفت لماذا يعطى تمثال الحرية ظهره لأمريكا .

واذا كانت فضيحة الجنس فى انجلترا قد كشفت عن انغماس أربعة من الوزراء ودوق وقاضية فى الرذيلة فان الولايات المتحدة الامريكية فازت بنصيب الأسد فى الفضائح ذلك أن الصحافة حملت الينا فى شهر مايو ١٩٧٣ وما تلاه من شهور أنباء ما أسمته (فضيحة ووترجيت) وهى الفضيحة التى كشفت عن تغلغل الفساد فى البيت الأبيض . وهو فساد لم يسلم منه رئيس الجمهورية نيكسون ولا نائبه ومستشاروه .

ونختم هذه الصورة المحزنة المفزعة بخبر من نيويورك نشرته صحيفة الأهرام يوم ١٩٧٣/٢/١٩ يقول : « زاد عدد الزوجات اللاتى يهربن من منزل الزوجية من حالة واحدة فى كل مائة حالة منذ عشر سنوات الى حالة واحدة من كل ثلاث حالات الان وخاصة فى المدن الكبرى . اعلنت ذلك شركة تريسرز اف أمريكا وهى شركة متخصصة فى تعقب الأشخاص المفقودين وقالت الشركة أن السبب فى هذه الظاهرة هو حركة التحرر النسائية التى أصبح لها أوسع النفوذ والتأثير فى البلاد » .

* * *

الفصل الخامس

حركة تنوير لا تحرير

قد تكون المرأة الغربية على حق فى استعمالها كلمات « جهاد ونضال وكفاح وتحرير » تعبيرا عن رغبتها فى التخلص من استبداد الرجل وسعيا الى تصحيح مكانتها الاجتماعية . لأنها عاشت عصور الظلام محتقرة مستذلة من الرجل ومستعبدة . فلما جاءت عصور النور لم تتغير أوضاعها ولم تتحسن أحوالها .

ولكن ليس من حق المرأة المصرية أن تستعمل نفس الكلمات وليس من حق حركة تحريرها أن تكون امتدادا لحركة تحرير المرأة الغربية لأننا اذا استعرضنا تاريخ علاقة الرجل المصرى وامرأته لا نجد فيه ظلما ولا بغيا تقره الشرائع أو القوانين . وانما نجد فى عهود الظلام ما يصاحب الجهل والفقر عادة من حماقات وسوء العادات .

ففى عصر قدماء المصريين كان لكل فرد فى الأسرة كيانه المستقل بما فيه من حقوق وواجبات . والمساواة بين الزوجين كانت مقررة وكاملة . فكانت الفتاة تتزوج بمحض اختيارها وكان لكل من الزوجين أملاكه وأمواله يديرها ويتصرف فيها وفق ارادته الحرة . وكذلك كانت لأبنائهما وبناتهما نفس الحرية متى بلغوا سن الرشد ويقول الاستاذ المؤرخ سليم حسن فى كتابه « مصر القديمة » أن

تعدد الزوجات لم يكن مباحا أو لعله كان مباحا ولكن بشروط ثقيلة يصعب تحقيقها . وفى عهد الاسرتين الخامسة والسادسة نشأت طبقة اقطاعية سيطرت على كل مصادر الثروة وحولت حيـــاة الشعب الى جحيم . ذلك أن الفلاح والعامل والموظف الصغير صاروا انصاف أحرار لا يجوز لهم ترك العمل عند اقطاعى للعمل عند اقطاعى آخر . وكانت الأرض تباع بمن عليها من فلاحين . وتغيرت المراكز القانونية لأفراد الأسرة التى أصبحت وحدة يمثلها رب الأسرة وهو الأب ثم الابن الأكبر من بعده فى ادارة أملاكها والتصرف فيها . وتغير مركز المراة تبعا لذلك فقد أخضعتها القوانين الجديدة لرب الأسرة خضوعا كاملا وسلبتها شخصيتها المستقلة وحريتها ومكانتهـــا الاجتماعية المرموقة . وقد انتهت هذه الفترة العصيبة التى قاسى فيها كل من الرجل والمرأة الكثير من المظالم بثورة شعبية أعـــادت الحقوق لأربابها .

ولما حكم الأغريق مصر فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد راعتهم تلك الحقوق التى كفلتها القوانين المصرية للمراة فأسرعوا الى تعديلها حتى لا تطالب المرأة الاغريقية بمساواتها بالمرأة المصرية . هكذا يقول الدكتور ابراهيم نصحى فى كتابه « تاريخ مصر فى عصر البطالمة » . وظلت المرأة المصرية تعانى من تشريعات وحكم الأغريق ومن بعدهم الرومان حتى جاء الاسلام بسماحته وعدله لينصف المرأة لا من الرجل المصرى ولكن من التشريعات الغربية التى تضع المرأة فى مرتبة لا تحسد عليها .

وفى النصف الثانى من القرن الثالث الهجــــرى بدأ الزحف المملوكى على المجتمع المصرى ولم يمض وقت طويل حتى صار اليهم حكم مصر والسيطرة على ريفها وحضرها . ولم يكن المماليك مـــع اسلامهم يعرفون غير القليل من لغة الاسلام والقليل من أحـــكامه السمحاء . ومن كانت هذه حالة غلبت على أعماله المظاهر بقـــدر بعـــده وجهـــــله بحقـــائق الدين الحنيف . فهم أول من

اوجـــد نظـــــام الحريم فى بيوتهم . وحـــــاكاهم فى ذلك المصريون الذين تقربوا اليهم وتملقوهم طمعا فى مال أو جاه .. وقد كانوا قلة غير محسوبة . أما الكثرة الغالبة من المصريات وتتمثل فى الفلاحات ونساء الأحياء المتواضعة فى المدن فكانت بعيدة تماما عن هذا التزمت الوافد على المسلمين من مركز تجارة الرقيق فى جنوب اوروبا ووسط آسيا .

وفى القرن التاسع عشر الميلادى تفتحت عيون المصريين على المجتمع الأوروبى بعد قرون عديدة من التخلف هنا وقرون من التقدم هناك . فكان أول ما انبهرت تلك العيون به سفور المرأة الغربية وتبرجها . ومنه بدأ التفكير فى تحرير تلك المرأة التى حبســـها المماليك وراء جدران جناح خاص فى قصورهم اسموه « الحرملك »

والدليل على صحة قولى هذا ما قالته السيدة هدى شعراوى فى محاضرتها التى نقلت بعض فقراتها فى الفصل الأول والتى تؤكد أن الدور الذى لعبته الأميرة نازلى فاضل كان يستهدف تحرير أولئك النسوة الشركسيات اللائى خرجن من وراء أسوار حريم قصر الخديو اسماعيل الى حريم قصور وبيوت الأمراء والعظماء ليكن زوجات لهم . وهن الجوارى البيض اللائى قام الخديو اسماعيل بتثقيفهن بمختلف العلوم والفنون وقد نبغ عدد عظيم منهن فى الأدب التركى والشعر وفن التمثيل والموسيقى والرياضة البدنية كما تقول السيدة هـــدى شعراوى . وأعتقد أن الرقص هو المقصود بعبـــارة الرياضـــة البدنيـــة .

لم تكن حال المرأة المصرية هى التى حفزت الأميرة نازلى على فتح صالونات قصرها والقيام بالدور الذى أشادت به السيدة هدى شعراوى لأن المرأة المصرية كانت فى ذلك الوقت مواطنة من درجة دنيا لا تحظى هى وزوجها واولادها بغير احتقار الأسرة الحاكمـــة

ومن دار فى فلكها من أتراك وشراكسة وأجانب ـ « السنا عبيد احسانياتهم » كما يقول الخديو توفيق ولأن المرأة المصرية كانت تقيم فى القرى فى الأكواخ . وفى المدن فى الأحياء المتواضعة أشد ما يكون التواضع . لم تدخل قط سجن الحريم ولم تختف قط وراء حجاب . وكانت تؤدى أدوارها الاجتماعية كزوجة وأم وربة بيت قدر ماتسعفها خبرتها الموروثة وكذلك كانت دائما فى عون زوجها كلما كانت به حاجة اليها .

ان محاولات الخديو اسماعيل لجعل مصر قطعة من أوروبا كانت معنية بالمظهر أكثر من عنايتها بالجوهر ولذلك سادها الاعتقاد بأن تبرج المرأة الغربية واختلاطها بالرجال كان من أهم وسائل تقدمها . فكان اهتمامه بجوارى قصره وكان اهتمام الأميرة نازلى فاضل بالدعوة الى تبرج المرأة المصرية ومحاكاتها المرأة الغربية . وهى الدعوة التى تحولت مع الأيام الى حركة تحرير المرأة المصرية والتى ظلت الى يومنا هذا أمينة على مبدأ التبرج ومحاكاة المرأة الغربية بل ومنافستها فى التزين والتجمل واظهار المفاتن .

وجدير بالذكر أن هذه الحركة عاشت فترة طويلة من عمرها فى مجتمع فرض عليه التخلف قرونا عديدة بل ما يزال الى يومنا هذا يبذل جهودا جبارة لينفض عن بدنه وعقله بقايا كثيرة منه . والمجتمعات المتخلفة تكون عادة تربة خصبة للثقافات والأفكار الوافدة عليها من المجتمعات المتقدمة . لذلك التمس العذر لحركة تحرير المرأة المصرية التى بدأت من فهم خاطىء للتقدم الذى حققته المجتمعات الغربية بظنها أن تبرج المرأة وخروجها للعمل كان من أهم الوسائل التى حققت ذلك التقدم . والتمس العذر أيضا فيما استعملت من الفاظ معبرة عن وجود صراع عنيف بين الرجل والمرأة ومصورة الرجل فى صورة القوة الغاشمة التى تستضعف المرأة وتستذلها . ولكن بعد ثورة الشعب المصرى عام ١٩١٩ وثوراته المنتهية بثورة عام ١٩٥٢ تفتح العقل المصرى على حقائق كثيرة .

وأصبح واضحا أن ما تعانيه المرأة من سوء معاملة الرجل لم يكن سوى واحد من مظاهر التخلف الاقتصادى والفكرى الذى فرض على الشعب المصرى . كان ضحيته الرجل والمرأة معا . ولم يكن سوء معاملة الرجل للمرأة مستندا الى شريعة أو قانون . فالقانون السائد هو الشريعة الاسلامية وقد سبق بيان فضلها العظيم على المرأة . ولكن كان مستندا الى الجهل الذى أطبق على كل من الرجل والمرأة والذى أخلى الطريق الى منطق القوة الجاهلة .

كان المأمول اذن بعد أن انتشر التعليم وتحقق للعقل المصرى قدر من الاستنارة والترشيد أن يحدث تطوير فى حركة تحرير المرأة المصرية وتغيير فى أهدافها . فلا معنى لاستخدام كلمات « تحرير . ونضال . وصراع » بعد ما زالت عن العقول غشاوة الجهل وظهر أن الرجل والمرأة بريئان من سوء القصد فيما كان يحدث بينهما وأنهما كانا معا ضحية للقهر والتخلف أقول كان المأمول أن تتطور حركة تحرير المرأة فى مصر الى حركة تنوير تقوم رسالتها على تبصير المرأة بواجبها نحو مجتمعها الصغير وهو الأسرة ومجتمعها الكبير وهو الوطن . وعلى تبيين القيمة العظيمة للعمل الذى يسرت له المرأة . فقد خلقها الله جلت قدرته لتكون زوجة وأما وربة بيت .

فالزوجية تفرض عليها أن تعمل على اسعاد زوجها وأن تثرى حياتها معه بالقيم الانسانية النبيلة . ومفروض فى الزوج أن يكون سباقا الى مثل هذا . فاذا ما ابتليت المرأة بزوج غير سوى الفكر والسلوك كان عليها أن تعمل على ترويضه وتقويم اعوجاجه فى صبر وأناة وجلد . وهى حين تنجح فى هذا تكون قد خدمت نفسها وخدمت وطنها . وعلى سبيل المثال فقد عرفت سيدة متزوجة من شاب يشغل وظيفة مرموقة ولكنه كان شديد القسوة عليها فظا غليظ القلب فى معاملتها منحرفا فى بعض عاداته مستهترا فى بعض تصرفاته . ولم يكن متصورا ولا معقولا أن تطول حياتهما الزوجية معا .

ومع ذلك صبرت عليه وأحسنت ترويضه وما زالت به حتى خلعته من قسوته وقومت اعوجاجه ودفعت به فى طريق الرجولة الكريمة . لقد كانت تقول دائما لأهلها أن زوجها مريض ولن تتخلى عنه . وصدق المثل الذى يقول « ان وراء كل رجل عظيم امرأة » والأمثال كما هو معروف حصيلة تجارب طويلة . وهو المثل الذى أشار اليه ساخرا ومنكرا الدكتور يوسف الحارونى فى مقال سنناقشه فى فصل لاحق .

والأمومة تفرض عليها أن ترعى أطفالها وتنشئهم على أسس علمية صحيحة سواء فى مجال الصحة أو مجال التثقيف والتعليم وان تغرس فى نفوسهم مكارم الأخلاق وحب الوطن . والأم هى القادرة وحدها على أن تجعل من أولادها مواطنين صالحين قادرين على خدمة وطنهم مستعدين للتضحية فى سبيله بالمال والروح . وسنرى فى فصل (درس من التاريخ) الدور العظيم الذى قامت به أم الملك « أحمس الأول » فى تنشئة ولديها على حب الوطن . وكيف ترجما ذلك عمليا فى حرب التحرير من الاستعمار الهكسوسى .

وربوبية البيت تلقى على المرأةمسئولية ادارتهادارة علميةسليمة سواء فيما يتصل بالبيت كمأوى أو كمجتمع بشرى . فمن حيث هو مأوى للأسرة ينبغى عليها أن تحسن تنسيقه وأن تبدع تنظيمه وأن تتقن تجميله . ومن حيث هو مجتمع بشرى فان مسئوليتها عنه يمكن حصرها فى الخطة التى ترسمها لادارة اقتصاد الأسرة التى يجب أن تستهدف تحقيق المأكل والملبس الملائم والادخار . واذا كان الادخار يمثل واجبا من أهم الواجبات الوطنية المفروضة على ربه البيت فان الوعى الادخارى الصحيح سيجعلها تستشعر مسئوليتها عن أى صورة من صور الاسراف الذى يعتبر بحق العدو الأول لاقتصاد الأسرة واقتصاد الوطن .

تلك هى الواجبات التى يسر الله جلت قدرته المرأة لها . وهى

كما ترى جليلة الخطر ولا يمكن اداؤها باتقان الا بالعلم والعرق .
ومع ذلك فان علماء الاجتماع والمشتغلين بحركة تحـــرير المراة لا يعتبرونها عملا يستأهل أن تتفرغ المراة له لأنه عندهم « عمـــل طفولى » على حد تعبير احدى الصـــحفيات فى الأهـــرام يوم ١٩٧٢/٥/٢ . وأنه لمن فضل الله على مصر أن نساءها لا يشجعن حركة تحرير المراة ويحرصن على احترام فطرتهن . هذه حقيقـــة تعترف بها قيادات حركة التحرير كلما تحدثت عن معوقات الحركة. مما سلفت الاشارة اليه فى أكثر من موضع . وفى هذا المجال أنقل ما نشرته صحيفة الجمهورية يوم ١٩٧٢/٧/١٣ لزوجة أحد كبار المسئولين اجابة عن سؤال عن واجبها الوطنى فى الظروف العصيبة التى تمر بها بلادنا :

« أعتقد أن واجبى نحو وطنى يتلخص فى وقوفى دائما وفى كل مرحلة وراء زوجى وأولادى فالزوجة المثقفة المتفهمة لطبيعة عمـــل زوجها تكون جزءا لا يستهان به فى تمكين الزوج من القيام بمهام عمله على أكمل وجه . وفى هذا ما فيه من واجب نحـــو الوطن . كذلك الأم التى تحسن تربية أولادها وتعدهم ليصبحوا شبابا مؤمنين بوطنهم مستعدين للتضحية من أجله مقدرين لواجباتهم نحو بلدهم والمجتمع الذى يعيشون فيه تقدم لوطننا ضريبته المفروضة عليها . والمجتمع الذى يعيشون فيه تقدم لوطنها ضريبته المفروضة عليها . هذه هى الضريبة المؤجلة التى تظهر نتائجها بعد سنوات . أمـــا الضريبة العاجلة فهى العمل الوطنى فى مجال الخدمة الاجتماعية وبث روح الكفاح والأمل فى كل من تقابلهم » .

ولكن حركة تحرير المراة فى مصر ظلت ماضية فى طريقها مؤمنة بالمفهوم الوثنى لتحرير المراة رافضة المفهوم الاسلامى بكل ما فيه من عدالة وسماحة . وليس الحوار الذى دار فى ندوة الاعلام بجامعة الدول العربية وكذلك ما جاء فى تصريح الدكتورة عائشة راتب وزيرة الشئون الاجتماعية السابقة وفى محاضرة السيدة هدى شعراوى

هو كل ما يمكن الاستشهاد به فى هذا المقام . بل اننا نجـــد فى الصحافة الكثير . ولعل من أهم ما اطلعت عليه ذلك المقال الذى نشرته صحيفة الأهرام فى ١٩٧٢/٦/١٦ تحت عنوان « الرجـــل المطحون الكيان » لأنه يكشف عن العقلية التى شكلتها حركة تحرير المرأة فى مصر بل عن الروح العدائية التى أوجدتها هذه الحركة .

والمقال تلخيص لكتاب قالت المحـــررة الصحفية التى كتبت التلخيص ان مؤلفته خانت بنات جنسها لتدافع عن الرجل . واكتفى هنا بنقل العبارات التى قدمت بها للتلخيص . تقول المحررة :

« فى ألمانيا الغربية وفى قرية صغيرة فى ولاية بافاريا تبعد ٣٠ كيلو مترا عن ميونيخ تعيش فى بيت كبير مع ابنهـــا مارتن (٨ سنوات) أشهر امرأة فى المانيا اليوم وغدا وفى العالم أجمع . كما أنها ايضا اكثر امرأة مكروهة .. السبب انها خانت النســـاء علنا وفضحتهن ووجهت اليهن ابشع التهم . هذه المرأة الخائنة هى (استرفيلار ٣٦) مظهرها كله عذوبة ونعومة . جوهرها كله خشونة ومرارة . حالتها الاجتماعية مطلقة . مهنتها طبيبة وعالمة اجتماع وأيضا أخصائية فى علم النفس . ولكنها فى أوائل هذا العام قررت أن تستبدل السماعة الطبية بالقلم وتخلت عن رحمة الطبيبة الانسانة التى كلها حنان . وتحولت بوحشية الى نمرة مفترسة . وراحت تكتب كتابها الذى عنوانه (الرجل المطحون الكيان) وفيه لا تدافع عن المرأة وقضية تحريرها كما هو المفروض وانما حاولت على العكس أن تثبت أن الرجل فى عصرنا هذا مجرد عبد للجنس الضعيف الذى يسيطر عليه بكل طغيانه » .

« وهذا الكتاب ــ لأن كل فصوله عبارة عن هجوم عنيف على المرأة ــ نجح نجاحا ــ ساحقا وقد ترجم الى ١٦ لغة ويحتل الآن رأس قائمة اكثر الكتب التى تباع فى الغرب . ومنذ ظهر الكتـــاب

والكاتبة الخائنة كلما قامت برحلة فى أى دولة تقوم النساء فيهـا بمظاهرات عنيفة تلعنها فيها وتقذفها بوابل من الشتائم البشعة . بل وقد حدث أثناء زيارتها لفيينا أن حاولت النساء ضربها . وفى أوسلو توجهت حشود من النساء الى دار النشر النرويجى التى طبع كتابها وكتبن على جدران المبنى عبارات كلها سب . وأمام هذه الحملات والمظاهرات الصاخبة ترد الكاتبة التى لا تعرف شـيـئا عن التضامن النسائى ضد امبريالية الرجل بهدوء أوليمبى بدافعية عن نفسها قائلة : « لقد وجدت أنه من الضرورى أن أثبت للمرأة أنها يجب أن تتغير ليس لأن الرجال يفرضون عليها طغيانا أبديا ولكن على العكس لأن النساء جعلن من الرجل فى مجتمعنا كلبا مروضا تماما حتى تكون حياتهن سهلة » .

ففى كتاب (الرجل المطحون الكيان) تظهر المرأة فى صورة كلها قسوة وفظاظة تصحبها أدلة وبراهين توجع وتلسع مثل عضـة الثعبان أو لدغة العقرب . ان المرأة فى نظر هذه الطبيبة الناعمـة والخشنة الجوهر غبية ولكنها سلطانة زمانها . مادية بحتة ولكنها طاغية . ليس لها قلب ولكنها مستبدة . ومن هو ضحية هذا الوحش ذو المظهر الضعيف الذى هو المرأة ؟ انه الرجل . الرجل الذكى الطيب الشهم الشجاع الذى قهرته المرأة وسيطرت عليه واستعمرته وحولته الى عبد لها . وهذا الكتاب كما تقول استرفيلار كان من المفروض أن يكتبه رجل ولكن حينئذ كانت نساء العالم سيوجهن اليه تهمة أنه كتب هذا الكتاب لينتقم من النساء لأنه كان تعيسـا معهن . وأنا لا أريد أن أخلق حركة تحرير للرجل مثل حركات تحرير النساء التى تجتاح العالم . ولكن كل شخص يجب أن يجد لنفسه الحلول المناسبة . بأن يبدأ بحل المشكلات الصغيرة . كما أن عليه أن يربى أطفاله بعيدا عن قواعد آداب السلوك التقليدية التى هى فى الواقع العلامات الخارجية للعبودية . واليك بعض مقتطفات من هذا الكتاب الذى سوف يهتف ويهلل له الرجال بينما سوف تلعنـه

النساء وهو فى الواقع يتضمن الكثير من الحقائق الصادقة ولكنه فى نفس الوقت يتضمن أيضا بعض الاتهامات الكاذبة » .

ان كتاب « الرجل المطحون الكيان » واحد من أصوات بدأت تعلو فى المجتمعات الغربية منذرة بالعواقب الوخيمة لسياسة تحرير المرأة بمفهومها السائد هناك . وكان ينبغى أن نصغى جيدا لهذه الأصوات العاقلة وأن نتدبر ما تحمله الينا . ولكن الكلمات التى استخدمتها الصحفية فى وصف مؤلفة الكتاب « امرأة مكروهة — هذه المرأة الخائنة — تحولت بوحشية الى نمرة مفترسة — الكاتبة الخائنة — التى لا تعرف شيئا عن التضامن النسائى ضد امبريالية الرجل » هذه الكلمات قاطعة الدلالة على تفشى الفكر الغربى الأنانى العدوانى بين نسائنا المثقفات المعنيات أو المشتغلات بحركة تحرير المرأة فى مصر . وهو أمر بالغ الخطورة على مستقبل شعبنا وأمتنا. ذلك أن الفكر الغربى يثير بأنانيته وعدوانيته فتنة بين الرجال والنساء فى مجتمع متدين ويثير فى صدر المرأة المصرية العداوة والبغضاء ضد الرجل لأنه يصوره لها انسانا أنانيا مستغلا متجبرا متعاليا .

* * *

الفصل السادس

حـــوار

تنشر صحفنا الكثير من الأخبار والمقالات التى تخدم أهـــداف حركة تحرير المرأة . وقد بدا لى من المفيد دراسة بعضها والكشف عما قد يكون بها من بعد عن جادة الحق والصواب :

(١) نظرة الى المرأة المصرية المعاصرة :

مقال للدكتور سيد عويس نشرته الاهرام يوم ١٩٧١/٢/٨ هذا نصه :

« أصبحت الأدوار الاجتماعية للأنثى فى مجتمعنـــــا المصرى المعاصر عديدة . فهى الآن تؤدى دور الأم ودور الزوجـــة ودور الأخت ودور الابنة ودور القائدة او دور الزميلة فى المنظمات الاجتماعية أو مؤسسات العمل كالأسرة أو المدرسة أو الجامعة أو مكان العمل على تباين انماطه أو جمعيـــة الخـــدمة الاجتماعية او المنظمـــة السياسية ... الخ فضلا عن دور الجارة فى مكان الاسكان .

« والملاحظ أن المكانة الاجتماعية لدور الأم كواحد من الأدوار الاجتماعية للأنثى المصرية فى ضوء قيم هذا المجتمع ومبادئه ومثله العليا مكانة مرتفعة جدا . على عكس المكانة الاجتماعية لمعظم أدوارها الاجتماعية الأخرى . واقصد بالمكانة الاجتماعية هنا التقدير الاجتماعى الذى يخلعه المجتمع أو جماعاته على عضو من اعضاء

المجتمع . وتتضمن عناصر هذا التقدير عادة الحب والخشية والاعجاب .. كلها أو بعضها أو واحدا منها .

« ونحن نرى أن هذا التقويم لمكانة الأنثى المصرية فى ضوء أدائها أدوارها الاجتماعية الحيوية العديدة الأخرى لا يتمشى مع القيم التى من وراء العلاقات السائدة فى مجتمعنا المصرى المعاصر . ومن ثم فهو لا يستند الى منطق سليم ويجب أن يتغير الى الأفضل بتغيير النظرة ندو الأدوار الاجتماعية التى تؤديها الأنثى المصرية من غير تفرقة بين دور وآخر ما دام الأداء سويا . فهى اذ تؤدى هذه الأدوار الاجتماعية أولا وقبل كل شىء انسانة لها شخصية اجتماعية تستحق كل تقدير . وبدون أداء هذه الأدوار الاجتماعية أداء سويا وبخاصة ما تعلق منها بتكوين الأسرة التوجيهية (أسرة الأب والأم والأخوة والأخوات) أو تكوين الأسرة التناسلية السوية (أسرة الزوج والزوجة والأطفال) لا يمكن تصور وجود المواطنين الصالحين فى المجتمع .. ولن تكون الأسرة سوية الا اذا أصبحت المراة فعلا وحقا شقيقة للرجل .. لها حقوقها الانسانية وعليها واجباتها الاجتماعية فى ظل قانون يعترف بها كانسانة ذات كرامة تستحقها عن جدارة » .

« واذا كان المجتمع المصرى قد جرب سيادة معظم الأدوار الاجتماعية التى تؤديها الاناث فيه فترة من الزمان فقد آن الأوان فى الوقت الراهن فى ضوء الضرورة الاجتماعية ليراجع هذا المجتمع نفسه ويغير هذا الوضع الجائر . فالملاحظ فى ظل هذا الوضع الجائر من وجهة نظر مصلحة مجتمعنا المصرى المعاصر ان الأنثى المصرية أقل عدوانا عليه من الذكر المصرى » .

ومجانبة الصواب فى هذا المقال تظهر بوضوح فيما يلى :

١ — الاعتقاد بقدرة المراة على أداء الوظائف السبع أداء سويا مع أنه من المستحيل تصور وجود انسان رجلا كان او امراة له من القدرة العقلية والبدنية ما يؤهله للقيام بها على نحو مرض .

٢ ـ المطالبة بقانون يعترف بأن المرأة انسان لها كرامتها . وكأنه لا علم له بالقانون الخالد الذى صدر منذ ١٤٠٠ عام والذى نشر على العالمين فى كتاب أنزل على خاتم المرسلين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام . قانون الهى كرم المرأة كما لم يكرمها قانون .

٣ ـ الدعوة الى تخلى الرجل عن مقاعد القيادة والرئاسة للمرأة لأنها أقل عدوانية على المجتمع . وهو بذلك يسقط تفوق الرجل الجسمانى والعقلى كما يسقط خبرته التى اكتسبها من ممارسته هذه الأعمال قرونا عديدة . واستشهاده بالأبحاث التى دلت على أن الذكور من الأطفال أكثر عدوانية على المجتمع من الاناث لا يؤيد وجهة نظره التى يدحضها ما قدمت من أدلة على تفوق الرجل على المرأة فى العقل والجسم كما يدحضها واقع حياتنا المعاصرة . فاسرائيل تراسها امرأة ومع ذلك فقد اقترن حكمها بأبشع صور العدوان على الشعوب العربية والهند تراسها امراة ومع ذلك لم تتردد ـ عندما أتيحت لها الفرصة ـ فى شن حرب عدوانية على باكستان ـ هذا فضلا عن أن المرأة فى مجتمعنا كانت وما تزال وراء كل جرائم الثأر .

٢ ـ نحن نظلم المرأة اذا عاملناها كالرجل :

مقال للدكتور خليل مظهر نقلت مقدمته فى الفصل السابق وانقل هنا الموضوع كاملا :

« **لماذا كتب هذا** : راقبت فى السنوات الأخيرة المرأة وهى لا تكاد تخرج من نوع من الظلم الا لتقع فى نوع جديد منه . أما الظلم الكلاسيكى القديم فنعرفه جميعا حق المعرفة . فقد حرمت به المرأة لأجيال طويلة من اشياء كثيرة اهمها التعليم والشخصية المستقلة . كما حرم العالم من مجهود نصف البشرية فى المشاركة فى كثير من الأعمال والمسئوليات والانتاج وسررنا جميعا حين رأينا الفتيات يدخلن المدارس ثم الجامعات ويشاركن الرجل فى كثير من

الأعمال . وبذلك تضاعف عدد المتعلمين كما تضاعف عدد العاملين ولابد لى هنا ان أعترف كأستاذ جامعى ان المرأة أثبتت أنها لا تقل عن الرجل فى هذا المجال بل وقد فاقته فى بعض الأحوال . وكان لهذه التجربة معنى خاص عند المنصفين منا فقلنا ان المرأة تخلصت اخيرا من ظلم الرجل كما تخلص العبيد من ظلم الأسياد وكما تخلص الفقراء من ظلم الأغنياء وبهذا تخلصت البشرية من ظلم الانسان لأخيه وساد العالم مبدأ (العدل والمساواة) بين جميع البشر مهما اختلف الجنس أو اللون أو المال .

وكنت من الجيل الذى رأى هذا التغيير وسر به أى سرور . ثم بدأت بعد ذلك الاحظ أمثلة من نتائج أو مضاعفات هذا التغيير هزت مشاعرى وبدأت سلسلة من المراقبة والتفكير تكلمت فيها كثيرا مع أصدقاء من الجنسين وبلورت أخيرا شعورى بضرورة الكتابة فى هذا الموضـــــوع .

ــ آنسة تتألم كل شهر أثناء الدورة الشهرية وتوافق هذه الدورة وقت امتحان المدرسة أو الجامعة وتصل هذه الآلام فى بعض الحالات الى التأثير فى نتيجة الامتحان وتحرم الطالبة من مجهود عام كامل بغير اثم ارتكبته . وطالبة أخرى تزوجت قبل انهاء الدراسة ويأتيها من المخاض أيضا فى وقت الامتحان ما يضيع الامتحان . هذا والطالب الرجل معصوم من هذه المضاعفات والمعوقات .

ــ سيدة فى الشهور الأولى من الحمل تشكو مما تشكو منه الحامل فى هذا الوقت من خمول أو قىء وتحتاج لراحة خاصة حفظا على جنينها ثم تأتى عليها الشهور الأخيرة من الحمل يزيد فيها هذا الجنين حجما ووزنا . ويسبب لها كثيرا من المتاعب . كل هذا وهى تقوم بعمل وظيفتها جنبا الى جنب الرجل القوى المعافى .

ــ أم تنتزع من طفلها الرضيع لساعات طويلة لتذهب الى وظيفتها وتتركه تحت عناية شغالة بالمنزل ذات ثقافة قليلة او عاملة فى دار حضانة ربما زادت عنها ثقافة وقلت عنها رأفة ورحمة .

– زوجة حصلت على ثقافة تساوى ثقافة زوجها ووصلت الى وظيفة مثل وظيفته بما فيها من عمل ومسئوليات تبدأ يومها بملاحظة الواجبات المنزلية للعائلة وتعود من عملها لا للراحة التى يتمتع بها زوجها بعد الانتهاء من عمله بل لتستأنف واجباتها المنزلية . وعليها أن لا تهمل جمالها وهندامها أمام زوجها لتحتفظ بجاذبية الأنثى وواجبات الزوجية . كل هذا والرجل غير مسئول عن شيء من هذه الواجبات المنزلية اللهم الا مسئولية الناقد الشديد . والمفتش المدقـق .

ماذا اريد أن أقـــول : ارى فيما رأيت وذكرت ظلما واضحا على المراة . ففى المـــاضى الظالم كانت المـــراة مختصة بالواجبات المنزلية والرجل بواجبات العمل خارج المنزل .

ثم جاءت ما سميت بالمساواة . فاستمرت المراة مسئولة عن الواجبات المنزلية وزاد عليها واجبات عملها .. خارج المنزل . والمنطق البسيط يقول ان لا مساواة فى هذا ولا عدل بل فيه الظلم كل الظلم . فبهذا يكون نصيب المراة فى العمل أكثر من نصيب الرجـــــل .

وأرى أن الحل المنطقى لهذا الوضع المجحف بالمراة لا يكون الا بأحد طريقين اما أن يتساوى الرجل والمراة فى المسئولية داخل المنزل وخارجه او أن يخفف من عمل المراة (على الأقل فى ظروف خاصة) حتى يمكن أن تقوم بالواجبات المنزلية .

وسأبين أن تقسيم الواجبات المنزلية بين المراة والرجل بالتساوى مستحيل لسبب بسيط جداً وهو ان جزءا هاما من هذه المسئولية لم يكن نتيجة التقاليد والعادات أو حتى ظلم الرجل للمراة بل نتيجة أن الطبيعة نفسها قد خصت المراة وحدها بجزء هـــام من هـــذه المسئوليات هى حفظ نسل الانسان وبقاء البشرية على وجه الأرض .

من هذا يظهر أنى أميل الى الحل الثانى وهو تخفيف واجبات المراة فى عملها فى الظروف التى تحتم عليها القيام بواجبات منزلية

هامة وخاصة بها وهنا أبدأ بتقسيم علمى للواجبات التى تقوم بها المرأة فى المنزل ـــ أو بتعبير أصح ـــ علاوة على عملها الخارجى حتى نرى اذا كان فى الامكان اقتسامها مع زوجها . فاذا لم يمكن ذلك بالعدل والمساواة فلا مفر اذن من تخفيف أعمالها خارج المنزل .

واجبات المرأة التى لا يقوم بها الرجل اليوم : وحتى يظهر ظلم الرجل للمرأة فى بعض هذه الواجبات أو براءته فى بعضها الآخـــر فانى أقسم هذه الواجبات الى ثلاثة اقسام :

* واجبات للمرأة خصتها بها الطبيعة ولا يمكن للرجل ان يقوم بها .
* واجبات تجيدها المرأة ولكن يمكن للرجل أن يقوم بها .
* واجبات يمكن أن يقوم بها الرجل كالمرأة .

الواجبات التى خصتها بها الطبيعة : ان جميع المخلوقات تتمتع بالقدرة على حفظ نسلها حتى تبقى الحياة على وجه الأرض . والانسان يملك هذه القدرة ويندفع اليها بغريزة قوية تكاد لا تقاوم ـــ غريزة التناسل ـــ ولكن بعد اللقاء الأول الذى يشعر فيه الذكر والأنثى بمتعة جسمية ونفسية ينتهى دور الذكر ويبدأ دور طويل من المسئوليات تتحمله المرأة وحدها حتى تظهر ثمرة اللقاء فى مخلوق جديد يمكن ان يستقل عن والديه ويحمل رسالة الانسان .

ودور المرأة فى هذه الوظيفة الانسانية الشريفة دور محفوف بالمتاعب والآلام والجهد من دورة شهرية الى اشهر الحمل الى وضع الجنين ثم ارضاعه .. وأود أن أتخيل أن الطبيعة لم تظلم المرأة عندما خصتها بهذه المسئولية الكبرى ولكنها وثقت فيها وفى حبها لوليدها لتتحمل هذه المتاعب والآلام(١) فحب الأم أقوى من أى حب آخر

(١) تعبير « الطبيعة » الذى يستخدمه الدكتور خليل مظهر تعبير غير اسلامى وهو يقصد فطرة الله تعالى التى فطر عليها المرأة .

وغريزة الأمومة أقوى بكثير من غريزة الأبوة ، وقد كافأها الله سبحانه وتعالى ووضع الجنة تحت أقدام الأمهات .

ولا أنوى أن أطيل فى وصف آلام الدورة الشهرية عند بعض الآنسات والسيدات أو متاعب الحمل ومضاعفاته فى الشهور الأولى والشهور الأخيرة منه وما يصاحب الوضع من جهد وألم أو الأيام الأولى من حياة الطفل وما تحتاجه من عناية وحنان وعطف فكلنـــا يعلم ذلك . وقد وضعت بعض التسهيلات للمرأة كأجازة الوضع . ولكن أين أجازة الحمل أو أجازة الرضاع أو أجازة العناية بالطفل فى الشهور الأولى الحرجة فى حياته .

الواجبات التى تجيدها المرأة : هنا يبدأ الجدل وتختلف الآراء ويقـــول البعض ان بعد انجاب الطفل تتساوى المرأة بالرجـــل فى الاشتراك فى الواجبات المنزلية . وأنا لا أنكر واجب الرجل فى مساعدة زوجته فى المسئوليات المنزلية ولكنى لا زلت ارى دورا أو أدوارا لا تجيدها الا المرأة .

* **دور الزوجـــــة :** ولا أقصد الأنثى بل أقصد شريكة العمر التى تقف بجانب شريكها وتشجعه وتؤازره فى اليسر وفى العسر والتى قال عنها المثل ان وراء كل رجل عظيم امرأة .

* **دور الأم :** هذا الدور يجىء كامتداد طبيعى للحمل والرضاع والعناية بالطفل فى الأسابيع والأشهر الأولى ومن يكون أقدر الناس على العناية بالطفل أكثر من الأم بعد أن حملته بين أحشائها ثم أرضعته من لبنها وأحاطته برعايتها ليل نهار فى صحته ومرضه .

* **دور سيدة البيت :** ولا أقصد بهذا المجهود الجسمانى الذى تقوم به المرأة فى الأعمال المنزلية ولكنى اقصد الجو الروحانى الذى يتصف بالجمال والنظام الذى تضفيه المرأة على المنزل الذى به امرأة والمنزل الذى حرم من هذه النعمة .

* **دور المرضة وطبيب العائلة :** فى الأمراض العادية لا يصلح لرعاية المريض من الأولاد والزوج أكثر من الزوجة بما تتصف به من قدرة عجيبة على الصبر والسهر والحنان .

الواجبـــات المنزلية التى يمكن ان يقوم بها الرجـــل والمرأة :

نتيجة لانتشار التعليم سيقل عدد الشغالين بالمنازل أو ربما اختفوا تماما . وستقوم كل أسرة بجميع الأعمال المنزلية وقـــد حدث هذا فى البلاد التى سارعت فى التقدم قبلنا ووجدوا الحل فى تبسيط هذه الأعمال وفى تعاون جميع افراد الأسرة — فصغر حجم المسكن وقل الأثاث وسهل تنظيفه . كما بسطت طريقة طهـــو الطعام وقامت الصناعة بأعداد جميع انواع الآلات الكهربائية التى تساعد على اداء الأعمال فى وقت قصير وجهد قليل وقد رأيت الرجال فى اوربا وأمريكا ينظفون السجاد والأثاث بالشفاط الكهربائى ويغسلون الملابس والأطباق بالآلات الخاصة بذلك . وأرى فى القريب العاجل هذه التغييرات فى منازلنا ورجالنا .

الحـــــــل : ارى أن تستمر المراة فى تعليمها وعملها خارج المنزل ولكنى ارى أن من واجب الرجل أن يشاركها فى الواجبات المنزلية كلما أمكن ذلك ولكن عندما تقف الطبيعة حائلا دون ذلك العدل فعلينا جميعا أن نخفف من أعباء عملها خارج المنزل لتقوم بوظيفتها المقدسة . وظيفة حفظ النسل ورعايته » .

من الواضح أن الدكتور خليل مظهر قد استجمع كل شجاعته ليبدى رأيا يعلم أنه لا يرضى انصار مساواة المرأة بالرجل . ولكن استشعاره بمسئوليته الوطنية دفعه الى استجماع كل شجاعته لينشر على النـــاس هـــذا الرأى . وقد استعمل بعض عبـــارات واصطلاحات لا أدرى هل تعبر فعلا عن معتقده أم أنه قصد بها التخفيف من وقع رأيه على المرأة وانصارها . وعلى اية حال فانى الاحظ على مقال الدكتور مظهر :

١ ــ انه يسقط من حسابه الفكر الاسلامى والتنظيم الاسلامى .

٢ ــ انه يعدد المتاعب التى تتعرض لها المراة العاملة مستجيبا فى تصويرها لأمانة مهنته وكأنه صوت النذير لبنى وطنه .

٣ ــ ان المراة والمجتمع كانا فى غني عن المشاكل والمتاعب التى تعتبر نتيجة حتمية للتمرد على طبيعة النفس البشرية .

٤ ــ انه يوجد اصرار على الخطأ . فيطالبون بعلاج للمشاكل بدلا من الاعتراف بالخطأ والعودة الى الأوضاع الطبيعية .

٣ ــ نحو نظرة جديدة الى المراة : مقال للدكتور يوسف الحارونى نشرته صحيفة الأهرام بعددها الصادر فى ١٩٧١/١١/٢٤ ويرد فيه على مقال الدكتور خليل مظهر :

« قضية المراة ووضعها فى المجتمع التى اثارها الدكتور خليل مظهر على صفحات الاهرام هى بلا شك احدى القضايا الاساسية فى عالمنا المعاصر . ويهمنى فى هذه الكلمة ان القى بعض الضوء على جوانب هذه القضية التى يبدو فيها وكأن المراة قد ظفرت بالفعل واتخذت مكانها الصحيح مساوية راسها براس الرجل . وأن تحرر المراة قد استكمل أبعاده واستوفى مقوماته حتى بدأنا نحذر من الأغراق فى المساواة . وانا نظلم المراة باسم مساواتها بالرجل . ولعلنى ابادر قبل الدخول فى الموضوع ان انبه الى ان الدراسة العلمية المثلى تقتضى باديء ذى بدء التحرر الفكرى والتحلل النفسى من قيود الأوضاع والتقاليد وجبروت العادات والمعتقدات ــ وهى فى قضية المراة بالذات ذات جذور عميقة واغوار سحيقة عبر القرون البعيدة والأجيال العديدة . حتى يبدو وكأن الأمر الطبيعي أن تكون المراة تابعة للرجل خاضعة له وانها ما خلقت الا لتكون فى المقام الثانى .

والحقيقة أن المرأة بشكل أو بآخر ما زالت كما هي وكما كانت دائما من قبل مجرد أداة في كل ميدان من ميادين الحياة تقريبا أداة لضمان تزويد البلاد بالسكان وأداة لتعليم الأطفال وأداة للقيام بأعباء المنزل وأعباء الزوجية لارضاء الرجل واخيرا وليس آخرا أداة لسد حاجة الاقتصاد القومي الى الأعمال البسيطة الزهيدة الأجر.
والواقع أنني أتناول قضية المرأة من موقف صعب ازاء مجتمع قد تطبع واستقر على أنه عالم الرجل. وليست هذه النظرة المتجنية قصرا على الرجل وحده بل الأمر من ذلك أن المرأة نفسها سجينة هذه القيود والأغلال. فحيثما أجريت استطلاعات بين الشباب من الجنسين عن الآمال والأهداف من الحياة يكاد البنات يجمعن على أن الزوج وتكوين الأسرة هو أهم أهدافهن بينما تتسم نظرة الشباب بالطموح الاقتصادي أو المكسب المادي. وقد يقول قائل ان الخصائص البيولوجية للمرأة هي التي ترسم وتحدد دورها في الحياة والمجتمع. لكن المرأة في هذا الشأن ليست سوى أنثى الحيوان المعروف باسم (الانسان العاقل) ومن هذا الموقع فان الأعمال الوحيدة التي انيطت بالمرأة ولا يمكن أن يتأهل لها الرجل هي الحمل والولادة فهل تدفعها هذه الوظيفة الى التقهقر الى الصفوف الخلفية وراء الرجل. هل هذه هي سنة الطبيعة. تجيبنا عن هذا السؤال البحوث والدراسات التي اجريت على مجتمعات الحيوانات وبصفة خاصة القردة ـ أقرب الحيوانات الى الانسان في سلم التطور. فلقد وجد العلماء أن القردة التي تعيش في ظروف آمنة لا يوجد لديها تقسيم للعمل ما بين الذكور والاناث بل تتشابه سلوك الجنسين الى حد بعيد فتسهم الانثى في الحصول على الغذاء وملاحظة الجماعة ويشارك الذكر في حمل الصغار وتربيتها وجميع عمليات رعايتها باستثناء الرضاعة. وقد يحسب البعض أن الرضاعة هي ركيزة الأمومة التي يقوم عليها ارتباط الطفل وتعلقه بأمه ومن ثم هدوء نفسه واحساسه بالأمان. غير أن أحد العلماء انبرى لتحقيق هذه الفكرة بتجربة شهيرة استخدم

فيها اثنتين من دمى القردة زود احداهما بثدى يرضع الصغير لبنا بينما كسى الدمية الثانية بمخمل ناعم دافىء وأطلق على الدميتين صغار القردة فكان اتجاه الصغار ليس الى ذات الثدى التى تمنح الطعام بل الى ذات المخمل الناعم الحانى التى تشبيع الدفء بالالتصاق بها والارتماء فى أحضانها . واستنتج العالم من ذلك أن أهم ما ينشده الطفل من أمه هو الحنان والدعة . ولئن قلنا ان صدر الأم حنون بطبعه فان الأب كذلك يستطيع أن يمنـح الدفء والرعـاية . ولقد اثبتت الدراسات النفسية أن الأطفال لا يدركون فوارق الجنس فى حياتهم المبكرة وان اعمال التنشئة والتطبيع هى التى تتولى بث هذه الفوارق وغرس الاتجاهات المنمية لها . فتحدد الأوضاع النفسية بالنسبة للجنسين وترسم أنمـاط السلوك لكل منهما . والقوالب الثقافيـة التقليدية التى تتعصب ضد المراة هى وحدها المسئولة عن الآثار العميقة والأوضاع الجائرة التى تميز قضية المراة اليوم . ويكفى ان نتأمل ما فى لغتنا وأمثالها من تمجيد للرجل والرجولة وتحميلها معانى الصدق والشهامة والحكمة . بينما نلحق بالعنصر النسائى صفات الضعف والاستكانة والخضوع . ان المراة تنفذ الى عالم الرجل بصعوبة بالغة . وغير صحيح أن الرجل يأخذ بيدها ويسمح بانطلاقها ويكفى أن نتناول بالدراسة والتحليل اهم مظاهر تحرر المراة فى العصر الحديث الا وهو خروجها الى دنيا العمل . فنحن نعلم انه فيما قبل الثورة الصناعية الحديثة جرى تقسيم العمل بين الرجل والمراة . فيتولى الرجل أمر العمل خارج البيت للكسب والحصول على الدخل اللازم للانفاق على اسرته . وانيط بالمراة العمل داخل منزلها لتهيئة المسكن وتدبير الأحوال المعيشية لأفراد الأسرة . وكانت تلك قسمة ضيزى . اذ كان عمل الرجل هو المرموق الذى يدر المال بينما اتسم العمل المنزلى بالهوان اذ لا يحس المرء ازاءه بالامتنان اذا انجز وانما يصب لومه وتعنيفه اذا قصر فيه . وحين افسح الرجل المجال للمراة للحصول على عمل خارج بيتها غفل او

تغافل عن العبء الذى يقع على كاهلها داخل بيتها وأدى خروج المرأة الى دنيا العمل الى تحملها بالعبئين ـــ حيث تعمل نوبة فى المكتب أو المصنع ونوبة ثانية فى البيت لتؤدى الأعمال المنزلية التقليدية . وتدل الاحصاءات على أن المرأة فى الدول المتطورة تقضى فى أعمال البيت ثلاث أو أربعة أضعاف الوقت الذى يقضيه الرجل ذلك مع اغفال الوقت الذى ينفق مع الأطفال وفى شراء الحاجات وهو ما يقدر فى المتوسط بساعة على الأقل بالنسبة للمرأة المتزوجة العاملة . ومن هنا ندرك بوضوح مدى الثقل الذى يقع على كاهل المرأة وحدها وهروب الرجل وتخففه من المشاركة فيه . ان الســـــؤال الذى يتردد فى هذا الصدد . هل أعمال المنزل حقيقة ذات طابع أنثوى لا تتفق أو تتمشى مع طبيعة الرجل ؟ هل تنظيف المنزل وغسل الملابس وشراء الحاجات وطهو الطعام واعداد المائدة وتجميل البيت وحتى التزين والاهتمام بالنظافة والمظهر جميعا أعمال ينبغى أن يعفى منها الرجل . أولا يقوم الرجل بالفعل بجميع هذه الأعمال اذا قدر له أن يعيش بغير أسرة ؟ ولماذا تتفق هذه الأعمال مع طبيعة الرجل اذا كان من طبقة الشغالين أو الخدم ؟ ان اصرار الرجل على التخلى عن دوره فى المشاركة فى هـــذه الأعمال لا يحمل ســـوى معنى الاثرة والاستعلاء ولا شك أن السيادة والخضوع هى أساس غير سليم فى العلاقات الانسانية . ان أسطورة (ان وراء كل رجل عظيم امرأة) يجب أن تستبدل بنموذج أكثر نضجا فلكى يكون المجتمع (لا الرجل) عظيما يجب أن يعمل النساء والرجال جنبا الى جنب لا على أساس ان واحدا خلف الآخر . واذا شئنا أن نجمل معالم النظرة الجديدة التى نطالب بها نحو المرأة حتى نعـــالج قضية تحرر المرأة معالجـــة حقيقيـــة جذرية فهى أولا أن يأخذ الرجـــل بنصيب حقا فى رعاية الأطفال وتنشئتهم فاحتضانه الطفل وأحاطته بالحنان ليس وظيفة بيولوجية مقصورة على الأم بل يستطيع الرجل أن يدلى بدلوه فيها فيكافأ على ذلك بتعلق الأطفال وحبهم له . ثانيا : أن يقتسم الرجل عن سماحة وتقدير أعمال المنزل مع زوجته وأن يتنازل عن صلفه

فى مزاولة دور السيد . ان منزل الزوجية وعاء الطرفين . ينبغى ألا يكون دور أحدهما العطاء ودور الآخر الأخذ فقط . ثالثا : ان نحاول جهد الطاقة تغيير مظاهر التمييز الغريبة فى التنشئة الاجتماعية ما بين البنت والولد . وهذا الدور مناط بصفة أساسية بالقادة والأدباء والمسئولين عن التعليم والاعلام » .

لأن هذه المقالة رد على مقال آخر فقد احتوت على أهم الأسس التى تحكم وتوجه حــركة تحرير المرأة فى مصر . واجــدر آرائها بالمناقشة ما يلى :

١ ــ يقول ان الدراسة العلمية المثلى لقضية تحرير المرأة تقتضى التحرر الفكرى والتحلل النفسى من قيود الأوضاع والتقاليد وجبروت العادات والمعتقدات . وهذا يعنى أن الدراسة لا تكون علمية الا اذا بدأت من فــراغ وانه يجب أن نلقى وراء ظهــورنا تقاليدنا ومعتقداتنا الدينية ونتبع ما يستخلصه علماء الاجتمــاع باجتهادهم المحض من تجاربهم على الحيوان والانسان . وتجارب القردة وغيرها التى أشار اليها الدكتور يوسف الحارونى ان دلت على شىء فانما تدل على سخفها وسخف النتائج المستخلصة منها . ذلك أن النفس البشرية لا تعرف بتجربة معاصرة على عشرات أو مئات أو ألوف من بنى الانسان وحسب وانما تعرف منها اذا أحسنت ومن أخبار الانسان فى تراثنا من كتب تاريخية أو أدبية أو سماوية .

٢ ــ محور القضية عنده هو نماذج العلاقة بين الرجل والمرأة التى تجعل منه سيدا وهى تابعة . وقد غاب عنه أن تلك النماذج واقع مفروض على المجتمع بسبب ما كان للاستعمار من سيطرة . وهو واقع ضحيته الرجل والمرأة معا وليس المرأة وحدها . لقد فرض الاستعمار على الشعب الجهل والفقر دهورا طويلة . جهل فى علوم الحياة وعلوم الدين مع فقر مدقع ومن ثم كان التفوق الجسمانى للرجل هو سيد العلاقة بينه وبين زوجه واولاده . فلما بدأت موجة

هذا الجهل تنحسر عن مجتمعنا أخذت علاقة الرجل بالمرأة تتغير الى أحسن . وينبغى هنا أن نفرق بين الرجل « سيدا » والرجل « رئيسا » . ان كثيرا من دعاة تحرير المرأة يرفض أن يكون الرجل سيدا أو رئيسا للمرأة . ومما لا شك فيه أن علاقة الرجل بالمرأة لا يجوز أن تكون علاقة سيد ومسود لأن هذا مما يرفضه الاسلام الذى يقيم علاقتهما على الحب والاخلاص والايثار . أما رئاسة الرجل للمرأة فهى حق له ليس على المرأة فقط بل على الأسرة كلها — حق يفرضه التنظيم السليم ويقره العلم الحديث . فلا يوجد مجتمع صغير أو كبير بغير رئيس واحد . والمثل العامى الشهير يقول « المركب اللى فيها ريسين تغرق » وما أكثر المراكب التى غرقت فى المجتمعات الغربية بسبب تمرد المرأة على رئاسة الرجل للأسرة .

٣ — ترفض حركة تحرير المرأة فى مصر الأسلوب الديمقراطى وتفرض وصايتها على المرأة ففى ندوة الاعلام التى أشرت اليها قالت الدكتورة زينب السبكى : « اننى أصارحكم القول بأن بناتنا غير مقتنعات بالدور الذى يقوم به الجيل الحالى وهو دور مرير لاشك فى ذلك وهن — أى بناتنا — يرغبن فى الانتهاء من دراستهن دون حماسة للأعمال النضالية أو الكفاح من أجل قضية المرأة » ويعترف الدكتور يوسف الحارونى فى مقاله قائلا « فحيثما أجريت استطلاعات بين الشباب من الجنسين عن الآمال والأهداف من الحياة . يكاد البنات يجمعن على أن الزواج وتكوين الأسرة هو أهم أهدافهن بينما تتسم نظرة الشباب بالطموح والنجاح الاقتصادى أو الكسب المادى . ومن الملفت للنظر أن تستعمل الدكتورة زينب السبكى عبارة « الأعمال النضالية أو الكفاح من أجل قضية المرأة » مع أن هذه الأعمال لم تكن فى يوم من الأيام سوى مطالب تقدم للمسئولين ولا يصاحبها عنف ولا تقابل بعنف . فأين هو « الدور المرير » و « النضال والكفاح » الا أن يكون الهدف توسيع وتعميق الفجوة التى تفصل بين كل من الرجل والمرأة .

٤ — يرفض الدكتور الحارونى أن يكون للخصائص البيولوجية دور فى رسم وتحديد دور المرأة فى المجتمع كما يرفض أن تكون المرأة وراء كل رجل عظيم . ويريد أن تكون هى عظيمة أى هى التى تقوم بالعمل الذى يضفى العظمة .

ان هؤلاء الذين يقودون حركة تحرير المرأة فى مصر والذين يؤيدونها يرفضون حكم الشريعة الاسلامية على حركتهم ويتنكرون للفكر الاسلامى الى حد وصفه بالتخلف والقصور وهم فى هذا يقلدون الغربيين الذين تنكروا لدينهم وزعموا أنه كان قيدا على تقدمهم ووصفوه بأنه « أفيون الشعوب » . ان الدين المسيحى لم يكن قط قيدا على حرية الفكر فى الدول الغربية ولا معوقا لتقدمها . بل القيد والتعويق كان نتيجة لانحراف رجال الدين عن سماحة المسيحية الى التسلط والقهر . ومع ذلك فالتاريخ يؤكد أن الغربيين نقلوا عن المسلمين علومهم وطوروها واضافوا اليها فى أوج تسلط الكنيسة كما يؤكد قيام النهضة الصناعية قبل أن ترتفع يد البابا الباطشة عن شعوب أوربا . واذا كانت الكنيسة قد تصدت لبعض المفكرين فان مسئولية التصدى لا تقع على الدين المسيحى بل يتحملها رجال الدين المنحرفون .

واذا كان المسلمون يعيشون حياة كلها فقر وجهل ومرض فلا يمكن الزعم بأن الاسلام هو الذى استدرجهم الى هذه الهوة السحيقة لأن التاريخ يشهد أن الاسلام أنشأ من مجموعة الشعوب التى آمنت به أمة عظيمة ارتفعت فى أرجائها منارات الحرية والعدل والعلم . كما يشهد بأنها ضيعت كل مقومات عظمتها عندما تخلت عن مبادئه وأحكامه فضعفت عن مقاومة الغزاة الأوربيين الذين سلبوها كل ثرواتها بل وكل قيمها العظيمة .

فالتقدم العلمى الذى أحرزه العقل البشرى فى الغرب هو كما ذكرت فى الفصل السابق ظاهرة لسنة من سنن الله فى الكون . ليبين

لزوال سلطة الكنيسة دور فيه ، كما ان تحرير المرأة لم يسهم فيه بنصيب ما لسبب بسيط هو تقدم الثورة الصناعية فى أوربا على ظهور حركة تحرير المرأة .

ولا ينبغى أبدا أن ينسى هؤلاء الذين يتهكمون على السلف الصالح ويصفون علماء المسلمين بذوى الأفكار القديمة البالية اننا شعب متدين تحكم حياته منذ ما قبل التاريخ الى يومنا هذا شرائع سماوية وان حياته لم تزدهر الا مع سيادة أحكامها . ولذلك فان نبذ هذه الشرائع والاعتماد على الدراسات والأبحاث التى لا يمكن ان تكون نتيجتها يقينية دعوة ملحدة يرفضها مجتمعنا — انما تكون الدراسات والأبحاث مقبولة بل واجبة فيما ليس للاسلام رأى فيه .

قد يكون للمفكرين الغربيين الحق فى الاعتماد الكامل على نتائج تجاربهم لأن تاريخ الكنيسة معهم خلق فى صدورهم كثيرا من الكراهية للدين ورفضا عنيدا لكل ما يأتى به . كما قضى على كل أمل فى ان يثوبوا الى رشدهم بالنظر فى الاسلام والانتفاع بأحكامه . أعنى تاريخ الكنيسة — كان وما يزال يدفعهم الى حماقة الطعن فيه .

ولكن ليس للمفكرين عندنا أن يقلدوا أساتذتهم الغربيين فى الاعتماد الكامل على نتائج بحوثهم وتجاربهم فى أى شأن يتعلق بالنفس البشرية . بل يجب عليهم أن يردوه للاسلام أولا فان كان له رأى فيه فكفى الله المؤمنين عناء البحث والتجربة . وأن لم يكن له رأى فليبحثوا ما شاء لهم البحث وليجربوا ما شاءت لهم التجربة لأن الاسلام هنا يؤيد البحث والتجربة كل التأييد .

وليس لهم أيضا أن يهجروا منابع الفكر الاسلامى ويعرضوا عن ارتيادها مأخوذين بالفكر الغربى مبهورين بالتقدم الذى حققه

لمجتمعاته . فليس كل ما فى الفكر الغربى جيدا وليس كل ما فى الفكر الغربى صالحا لمجتمعاتنا .

لقد طالبوا بمنح المرأة حق العمل خارج البيت بدعوى أنها تعيش فى فراغ وأن قطاع الانتاج محروم من نصف السكان . فلما خدمتهم الظروف وخرجت المرأة للعمل مع الرجل فى الحكومة والهيئات والشركات نشأت متاعب ومشاكل للمرأة مثل رضاعة الأطفال ورعايتهم أثناء ساعات العمل ومثل ارهاق المرأة بالأعمال المنزلية . وطالبوا الدولة بانشاء دور لحضانة الأطفال وطالبوا الرجل باقتسام الأعمال المنزلية مع زوجه حتى حضانة الأطفال يطلب الدكتور يوسف الحارونى الى الرجل أن يدلى بدلوه فيها . ومن المؤكد أنه عندما يتم ترويض الرجل على اقتسام أعمال البيت وحضانة الأطفال مع زوجه سيطالبونه بأداء كل هذه الأعمال وحده لأن تكوينه الجسمانى القوى يجعله قادرا على الانفراد بها . وحينئذ سيعترفون بالفوارق البيولوجية التى ينكرونها الآن . وسيجعلونها سببا قويا لمطلبهم هذا .

ولكن هل تشغيل المرأة فى الحكومة والهيئات والشركات خدم الاقتصاد المصرى فعلا ؟ وهل مشاركة المرأة للرجل حققت لها الحرية وجلبت عليها السعادة وأخيرا هل عمل المرأة المصرية دفع مجتمعها فى طريق التقدم ؟

فأما عن خدمة الاقتصاد الوطنى فأعتقد أن حركة تحرير المرأة لا تستطيع ولديها امكانيات عظيمة وقدرات فائقة — أن تقدم دليلا ماديا واحدا على أن تشغيل المرأة قد عاد على الاقتصاد الوطنى بنتائج ايجابية — لأن الواقع يؤكد أن تشغيلها أضاف عليه عبئا ثقيلا .

فهو أولا قد تسبب فى نشر البطالة بين الشبان الذين حصلوا على مؤهلات عالية أو متوسطة . لأن الحكومة التزمت بعد صدور قوانين يوليو ١٩٦١ الاشتراكية بتشغيل كل هؤلاء فى الوزارات والمصالح والهيئات والمؤسسات والشركات . ثم تبين لها أنها تحمل

ميزانية الدولة أكثر مما تطيق فقررت ارجاء تعيين من تخـــرج فى الجامعات والمعاهد العليا عاما زادته الى عامين ومن تخرج فى المعاهد المتوسطة عامين زادتهما الى ثلاثة أعوام . والاحصائيات التاليـــة تعطى القارىء فكرة عن الاعداد الكبيرة من الشبان الذين يتركون فى الشوارع بلا عمل بسبب تشغيل المرأة :



		٦٨/١٩٦٧	٦٩/١٩٦٨	٧٠/١٩٦٩	٧١/١٩٧٠	٧٢/١٩٧١
خريجو الجامعات	ذكور	١٥٢٥١	١٤٦١٨	١٥٣٣٣	١٥٨٧٦	١٦١٦٧
	اناث	٤٧٥٤	٥٠٨٤	٥٧٣٨	٦٤٧٦	٦٧٠٩
	المجموع	٢٠٠٠٥	١٩٧٠٢	٢١٠٧١	٢٢٣٥٢	٢٢٨٧٦

		٦٨/١٩٦٧	٦٩/١٩٦٨	٧٠/١٩٦٩	٧١/١٩٧٠	٧٢/١٩٧١
خريجو المعاهد العليا	ذكور	٣٧٨٥	٤٢٢١	٣٥٤٩	٣٣٧٦	٤١٣٨
	اناث	١٢١١	١٣٨٥	١٦٥٦	١٥٧١	١٩٧٣
	المجموع	٤٩٩٦	٥٦٠٦	٥٢٠٥	٤٩٤٧	٦١١١

		٦٨/١٩٦٧	٦٩/١٩٦٨	٧٠/١٩٦٩	٧١/١٩٧٠	٧٢/١٩٧١
خريجو المعاهد المتوسطة	ذكور	—	٣٥٨٤٥	٤٠٧٩٨	٤٣٨٧٦	٤٨٢٨٥
	اناث	—	١١٣٣٣	١٨١٦٠	١٩٤٩٩	٢٢٤٠٥
	المجموع	—	٤٧١٧٨	٥٨٩٥٨	٦٣٣٧٥	٧٠٧٦٠

ومن هذه الأرقام يتضح أن عدد الشبان العاطلين فى آخر عام ١٩٧٢ كان :

١٥٨٧٦ + ١٦١٦٧ + ٣٣٧٦ + ٤١٣٨ + ٤٠٧٩٨ + ٤٣٨٧٦ + ٤٨٢٨٥ = ١٧٢٥١٧ شابا

ولقد بلغ عدد النساء العاملات فى الدولة ٤١٢٠٠٠ عاملة فى عام ١٩٦١ وارتفع هذا العدد الى ٥٤٣٠٠٠ عاملة فى عام ١٩٦٩ بينهن ٣٤٨٠٠٠ بمؤهلاتعالية و ١٣٣٦٠٠ بمؤهلاتمتوسطة وتكون جملتهن ١٦٨٤٠٠ عاملة . اى انه يوجد شبان عاطلون بما يوازى عدد النساء العاملات فى مختلف اجهزة الدولة (١) .

وهو ثانيا لا يحقق الغرض منه من حيث أنه مصدر دخل للمرأة يجعل منها ندا للرجل الذى يسيطر عليها ويتحكم فيها بسبب انفاقه عليها على حد زعم حركة تحرير المرأة — لأنها تنفق مايقرب من نصف هذا الدخل على التزين والتجمل ومنافسة زميلاتها فى ملاحقة أحدث ابتكارات الأزياء. وحسبنا دليلا علىذلك الزيادة الكبيرة فى عددمحلات التجميل وتصفيف الشعر والزيادة الكبيرة فى استهلاك ادوات التجميل التى بلغ انتاجنا المحلى منها مقدرا بالجنيه :

عام ١٩٦٨ : ٣٫٠٨٦٫٠٠٠ — عام ١٩٦٩ : ٣٫٩٨٩٫٠٠٠ — عام ١٩٧٠ : ٥٫٠٧٩٫٠٠٠ — عام ١٩٧١ : ٥٫٩٤٣٫٠٠٠ — عام ١٩٧٢ : ٨٫٢٥٠٫٠٠٠ .

وهذه الأرقام تمثل الاستهلاك المحلى لأن قيمة الصادرات تعادل قيمة الواردات .

وهو ثالثا قد تسبب فى هبوط مستوى الأداء فى القطاع الحكومى وفى القطاع العام لأن المرأة اقل قدرة من الرجل على الأداء — وتلك حقيقة اثبتناها علميا وشهد بها الواقع الذى سجله الجهاز المركزى للتنظيم

---

(١) بترخيص من الجهاز المركزى للاحصاء .

والادارة فى أحد تقاريره السنوية ــ ولأن تشغيل المرأة كان زيادة عن حاجة العمل الى الأيدى العاملة . الأمر الذى أرهق ميزانيـــة الدولة فعلا وغل يد الحكومة عن رفع الأجور الى المستوى المتلائم مع الأسعار السائدة مما كان له أسوأ الأثر على نفوس العاملين . ولولا تشغيل المرأة ما تركت الحكومة أكثر من ١٧٠ر٠٠٠ شاب مثقف بلا عمل عامين أو أكثر . وما ترددت فى رفع أجــر العاملين الى المستوى الذى يكفل لهم حياة مريحة كريمة .

وأما عن الحرية بمفهومها عند حركة تحرير المرأة فلم تتحقق بعد ولا أظنها تتحقق فى مجتمع متدين كالمجتمع المصرى لأن العقيــدة الدينية تضع خير الضوابط وأحكمها لعلاقة الرجل والمرأة وتمنح الرجل من حقوق الرياسة أو القيادة قدر ما يصون الأسرة من التمزق والضياع . واذا فرض جدلا أن تحققت هذه الحرية لبعض النسوة فما أحسبهن سعيدات بها . اذ ليس أدعى لفساد الرجل والمرأة على السواء من حرية بغير ضوابط وقيود .

وأما عن التقـــدم الذى يمكن أن يحققه للوطن تشغيل المـــرأة فهو بغير شك وهم . لأن التقدم هو سمو فى الأخلاق ورفعة فى العلوم والمعارف تنعكس آثارهما على الانتاج والخدمات ــ وفرة وجودة ــ وعلى التوزيع ــ عدالة وسماحة . وهو أمل مازلنا بعيدين عن تحقيقه وان كنا نبذل قصارى جهودنا من أجله . ثم أى تقدم هذا الذى يزحم مواقع العمل بالنساء ويترك الشباب والرجال بلا عمل لكى نفتح على مجتمعنا أبواب المشاكل والانحرافات التى تعانى منها مجتمعـــــات سبقتنا فى هذا السبيل .

ان المرأة المصرية غير مؤمنة بعملها خارج بيتها غير راضيـــة عن حياتها العائلية غير سعيدة بحياتها الزوجية لأن أعباءها فوق طاقة البشر . وستهلل فرحا يوم تقوم الحكومة بتقرير أجور للرجال تكفى لنفقات أسرهم فى غير ما شطف . تلك حقيقة تعرفها حركة تحرير المرأة فى مصر وتعترف بها مما أشرنا اليه فى فصول سابقة .

* * *

الفصل السابع

درس من التاريخ

قسم المؤرخون عصر قدماء المصريين الى ثلاثة عهود : عهد الدولة القديمة وعهد الدولة الوسطى وعهد الدولة الحديثة . ويمكن تلخيص السمات البارزة لكل من هذه الدول على النحو التالى :

(١) الدولة القـــديمة :

هى الدولة التى أسسها الملك مينـــا بتوحيد وجهى مصر . وقد قام اقتصادها على أساس تملك الحكومة لمساحات كبيرة من الاراضى الزراعية وتخصيص غلتها للنفقة على مختلف الخدمات من أمن ودفاع وشق وتطهير الترع وغير ذلك من الخدمات التى كانت تقوم بها الحكومة فى ذلك الزمان . أما الباقى من الأراضى الزراعية فكان ملكا خاصـــا للفلاحين . ولم يكن مسموحا بالملكيات الكبيرة حتى ينتفع أكبر عدد من أسر الفلاحين بالمساحة المحدودة التى لا تملكها الدولة . ولم يكن دخلها ولا أعلى الأجور المقررة لكبار موظفى الحكومة يسمح بممارسة حياة مترفة . نعرف ذلك من عجز كبار القوم عن دفع تكاليف قطع ونقل الحجر اللازم لمقبرة تليق بمقام الواحد منهم .

ومن أهم ما امتاز به حكم الأسر الثلاث الأولى العدالة المطلقة التى سادت علاقة الحكومة بالعاملين فى أجهزتها خاصة وبالمواطنين عامة . فلما ولى أبناء الأسرة الرابعة الحكم تربعوا على عرش مكين

وحكموا شعبا قويا غنيا بأخلاقه وأمواله . فغرهم السلطان وفتنهم المال . ولولا خوفهم من الشعب لقضى شيطان العظمة فى سنوات على ما حصله وحققه الشعب فى مئات . وقد لا تكون الأهرام التى بناها خوفو وخفرع ومنكاروع شيئا يذكر فى مجال التنديد بسياستهم هم ومن جاء بعدهم لأن بناء تلك المقابر استأثر بالكثير من مال الشعب وعرقه . وقد كانت خزانة الدولة عامرة بالمال وقادرة على تغطية مثل هذه الأعباء الباهظة . أما الذى يذكر بأسف بالغ حقا فهو خروجهم على سياسة أسلافهم . تلك السياسة التى حققت للشعب جهازا حكوميا نظيفا مقتدرا مبرأ من عوامل الفساد . لقد سمح ملوك الأسرة الرابعة لأنفسهم أن يؤثروا المقربين اليهم بمنح كانت فى أول الأمر قليلة الأهمية مثل ، كل انحراف فى بدايته . ثم أخذت ترقى فى مدارج الأهمية حتى بلغت القمة فى عهد الأسرة السادسة. هذه البداية البسيطة فى الخروج على مبادىء العدالة والمساواة المقررة انتهت بالشعب الى حكم اقطاعى مسرف فى ظلم الفلاحين فى القرى والموظفين والعمال فى المدن وهو الحكم الذى سلب هؤلاء وهؤلاء نصف حريتهم . وهوى بالمرأة الى حضيض الذل والهوان بعد أن كانت عزيزة كريمة لا ترى لها رسوم الا فى مثل حجم زوجها ودلالته على المساواة التى كانت تنعم بها .

كان شعب الدولة القديمة يعيش فى ظل عقيدة وثنية تقوم على الايمان بإله والايمان بالعدل والأمان بالفضيلة . ومن ثم كانت حياته حرة أبيه كريمة وتوفرت له كل أسباب النهوض فنهض وكل أسباب الرقى فصعد . فلما انقلبت هذه الحياة الى نقيضها وهوى الحكم فى عهد الأسرة السادسة الى حضيض الفساد وتوالت على الشعب مظالم الاقطاعيين وتكاثرت . ولما يئس من اصلاح ملوكه وحكامه ثار عليهم حوالى عام ٢٤٧٥ ق.م ثورة عارمة أذلت أعناقهم وشتت شملهم . وهى أول ثورة شعبية عرفها التاريخ . ولذلك أسميتها فى كتابى « تاريخ الثورات المصرية » أم الثورات .

(٢) الدولة الوســـطى :

انتهت الثورة بقيام حكم صالح فى البلاد . وكان من أهم الاصلاحات ألتى تحققت :

أ ـ اشاعة العدالة والجدية فى أجهزة الحكومة . وقــد حفلت الوثائق بأنبائهما .

ب ـ الغاء ملكية الحكومة والاقطاعيين للأراضى الزراعيــة وتوزيعها على الفلاحين بحيث يسلم لرب كل أسرة مساحة من الأرض تتناسب مع عدد أفراد أسرته . وفــرضت الضرائب على الأراضى الزراعية لتمويل خزانة الحكومة ويقول الاستاذ عمر ممدوح مصطفى فى كتابه (تاريخ القانون) أن بعض فقهاء القانون يرى أن هذا الاصلاح هو نظام اشتراكية الدولة ويرى بعضهم الآخر انه على الرغم من أن الدولة كان لها الاشراف على العمـــال والفلاحين فقد كانت تتدخل لتراقب أحوال الزراعـــة والصناعة وتقوم بمهمة التوجيه والارشاد الا أنها مع ذلك لم تأخذ على عاتقها مهمة الاستغلال ولم تتكفل بدفع الأجور ولهذا يرون أن هذا الاصلاح هو نظام الاقتصاد الموجه وهو من النظم الاشتراكية أيضا .

جـ ـ تخلصت العقيدة الدينية الى حد ما من خرافة الاعتقاد بمادية الحياة فى القبور وتوقف اهتمام الملوك والعظماء بمقابرهم واتجهوا بأموال الدولة نحـــو المشروعات النافعة للشعب مثل اقامة أول خزان مياه عرفه التاريخ وكان على شكل قوس طوله حوالى عشرين ميلا حول بحيرة قارون بالفيوم تحجز أمامه مياه النيل الواردة اليها وقت الفيضان ومثل حفر ترعة ملاحية عظيمة تصل البحر المتوسط بالبحر الأحمر عن طريق النيل .

والأسس القوية المتينة التى قام عليها نظام الحكم فى هذه الدولة صالحة لبقائه مدة طويلة ولكن من المدهش أن ينهار هذا النظـام بسرعة مذهلة فلم يعمر سوى قرنين من الزمان . والقرنان كانا فى تلك الأيام الخوالى مثل أربعين أو خمسين عاما من زمننا . اذا أخذنا فى الحسبان أن وسيلة المواصلات كانت الحمار برا والمراكب الشراعية بحرا .

ويعزى فى رأيى قصر عمر النظم الصالحة فى مصر الى طيبة شعبها وسماحته . والشعوب الطيبة السمحة يسهل عادة التغرير بها . ولا تدرك الحقائق الا بعد فوات الوقت المناسب ثم يطـول الانتظار حتى تنتفض وتثأر من هؤلاء الذين غرروا بها . وعلى اية حال فان عهد الدولة الوسطى قد انتهى بكارثة . فقد حدث فى عهد الأسرة الثالثة عشرة صراع على العرش بين قادة الجيش وكبـار الموظفين وتوالت الانقلابات حتى أن بعض من اعتلى العرش لـم يستقر عليه الا أياما معدودات . فعمت الفوضى البلاد واستشرى فى دواوين الحكومة الفساد . وظل الأمر على هذه الحال حتى فاجأت جيوش الهكسوس شعب مصر وجيشها المتهالك واحتلت أرض الكنانة وحكمت شعبها قرابة مائة وخمسين عاما .

وينبغى أن أشير الى أن حركة التحرير التى تحقق لها النجاح فى النهاية على يد الملك أحمس الأول كانت تحركها وتشرف عليهـا سيدة مصرية عظيمة . وليسمح لى القارىء أن أنقل هنا ما كتبته عن هذه السيدة فى كتابى « تاريخ الثورات المصرية » .

« هذه البطولات التى كشفت عنها حروب التحرير والتى تثير فى النفس أقوى مشاعر التقدير والاعجاب والتى تثير فى نفوسـنا نحن العرب الشعور بالعزة كانت تقف من ورائها سيدة عظيمة تشد من أزرها وتنفخ فيها من روحها . تلك هى الملكة (اعح حتب) زوج الملك (سقنن رع ـ تاعا الثانى) . لقد مات زوجها فى حومة الوغى

وهى ما تزال فى ربيع الحياة شابة جميلة نضرة وترك لها غـــلامين صنعت منهما أعظم قائدين شهدهما تاريخ مصر القديمة باستثناء تحوتمس الثالث طبعا ـــ هما الملك (وازخبررع ـــ كامس) والملك (أحمس الأول) اللذان حملا عبء تحرير الكنانة من حكم الاستعمار الهكسوسى . وقد أقام (أحمس الأول) لوحة فى معبد الكرنك أشار فيها الى الدور الذى لعبته هذه السيدة الجليلة فى حروب التحرير وتعتبر هذه الملكة بحق مثلا رائعا للمواطنة الصالحة والأم الفاضلة. فقد فجعت باستشهاد زوجها فى ساحة القتال وهى ما تزال فى ريعان الصبا . فوهبت نفسها لوطنها وعاشت له بكل جارحة من جوارحها . وتعهدت ولديها بحماس وعناية وكفاية ممتازة . آيتها ما كان من أمرهما مع الهكسوس وما كان من حملهما رسالة أبيهما ونجاحهما فى اتمامها . ومع أن ابنها (كامس) مات صغيرا فقـــد عرفت كيف تقى نفسها الانهيار والتحطم اللذين تتعرض لهما أية امرأة يصيبها ما أصاب (أعح حتب) من فقد زوجها ثم أكبر أبنائها. وواصلت السير فى الطريق الذى رسمته لنفسها ـــ طريق تحرير وطنها من حكم الأجنبى ـــ بأن تعهدت ابنها الثانى (أحمس) وما زالت به حتى سلمته عنان الجواد وتركته ينطلق فى أثر الهكسوس فلم يعد لها الا بعد أن طهر منهم أرض الكنانة فكان نعم الابن وكان نعم الخلف لنعم السلف . ولقد اعتبر المؤرخون عهد الملك (أحمس الأول) بداية الدولة الحديثة .

(٣) الدولة الحديثـــــة :

دراسة تاريخ الدولة القديمة والدولة الوسطى تؤكد لنا أن المصريين القدماء كانوا أساتذة فى مختلف فروع العلم والمعارف خصوصا ما اتصل منها بشئون الادارة والاقتصاد ومن ثم كان حرصهم الشديد على اقامة جهاز حكومى نظيف مقتدر لخدمة مجتمع نظيف مقتدر . غير أننا نلاحظ على ملوك الدولة الحديثة ـــ وقد فتنوا بقوة الشعب وحيويته ـــ شغفهم بالغزو والفتح . وكانت الانتصـــــارات التى

احرزوها بمثابة غشاوة على عيونهم فلم يبصروا الحالة الاجتماعية التى كان عليها شعبهم . ولم يحفلوا بالسياسة الداخلية حفلهم بالسياسة الخارجية التى استغرقت كل تفكيرهم واستأثرت بكل جهودهم .

لقد خرج الشعب بعد مائة وخمسين عاما من الحكم الأجنبى فقيرا فقرا مدقعا ماديا ومعنويا فى غياب القيم الانسانية والتقاليد العظيمة التى قامت عليها امجاد الدولتين القديمة والوسطى . هذا الفقر لم يلتفت اليه احد ولم يدرك خطره احد . وظل تيار الانحلال الخلقى الذى استشرى خطره فى عهد الاحتلال مندفعا لا يجد من يوقفه متفاقما لا يتصدى له أحد .

ان الأمراض الاجتماعية ألتى استشرت فى عهد الدولة الحديثة كثيرة ولا يعنينا منها فى هذه الدراسة الا ما يتصل بموضوعنا . ذلك أن الدور الخالد الذى لعبته ألسيدة الجليلة والملكة العظيمة (اعحجتب) من اجل تحرير بلادها قد أشعل غريزة التقليد فى نساء الملوك والعظماء وما دام عهد الكفاح والنضال قد انتهى فان عليهن أن يبحثن عن مجالات أخرى يبرزون فيها كما برزت ويخرجن على الناس كما خرجت . ومن ثم حفل تاريخ تلك الدولة بالملكات اللائى فرضن وصايتهن على أولادهن الذين اعتلوا صغارا عرش بلادهم مثل (نفرتارى) زوج الملك (أحمس الأول) التى أعلنت وصاينها على ابنها ألملك (امنحوتب) ومنهن من انتزعن الحكم لأنفسهن مثل (حتشبسوت) التى كانت وصية على الملك (تحوتمس الثالث) ثم عزلته قبل أن يبلغ سن الرشد . ومثل الملكة (تى) التى حكمت باسم زوجها الضعيف الملك (أمنحوتب الثالث) ثم حكمت باسم ابنها القاصر الملك (أمنحوتب الرابع) الذى سمى نفسه فيما بعد (أخناتون) . فلما مات وخلفه أخوه على العرش نازعته (نفرتيتى) زوج (أخناتون) السلطة ولما لم يؤيدها الشعب استعدت عليه دولة أجنبية .

وكان لهذا التغيير فى حياة نساء الأسرة المالكة وما فيه من خروج على قوانين الشعب وتقاليده التى تحرم عليهن ممارسة الحكم على أى وجه من الوجوه أثر كبير على حياة نساء البيوت الكبيرة اللائى خرجن الى الحياة الصاخبة وسعين الى اشباع نزعة السيطرة والتحكم مقتديات فى ذلك بنساء الأسر المالكة . فماذا كانت نتيجة هذا التغيير فى حياة المراة المصرية فى ذلك الزمان ؟ كانت على النحو التالى :

اولا : هربت الملكات من مسئولياتهن فى القصر بما فيه من اهتمام بالملك ورعاية وعناية بأولادهن . وشغلن أوقاتهن بالتدخل فى شئون الحكم والظهور فى الحفلات العامة والخاصة . وصار الأمر كله فى تربية الأولاد الى المربيات . ومعروف أن فقد الزوج اهتمام زوجه يؤدى حتما الى انصرافه عنها وفقد الأولاد حنان الأم ورعايتها يؤدى حتما الى انحرافهم . فلا عجب اذن اذا رأينا قصور الملوك تشهد لأول مرة تعدد الزوجات فضلا عن ازدحامها بالمحظيات .

ثانيا : كان للمربيات نفوذ كبير استخدمنه فى تعيين ذوى قرباهم فى وظائف الدولة . وبذلك اصبحن ذوات فضل عليهم واستشعرن علو مكانتهن على مكانتهم . فلا بأس عليهن ان تعالين عليهم وتحررن من قيود الرقابة والتوجيه التى كانت حقا للرجل فى عهد الدولتين القديمة والوسطى على المراة .

ثالثا : شاع ظهور المراة فى الحفلات والسهرات الماجنة . وقاسمت الرجل كؤوس الخمر وشاهدت معه الوانا من الرقص الماجن . ولقد اعتاد القوم هذا الانحراف حتى انهم لم يستشعروا الخجل وهم يسجلونه على جدران مقابرهم بنقش مناظر الحفلات الماجنة عليها . وكأنهم قد فقدوا

تماما كل شعور بالعصبية . وقد حرص الاستاذ سليم حسن على تسجيل هذه الظاهرة أو هذا المرض الاجتماعى الفتاك فى كتابه « مصر القديمة » .

رابعا : أولاد الملوك وكبار رجال الدولة الذين شبوا وترعرعوا فى أحضان المربيات محرومين من رعاية وحنان أمهاتهم لم يكونوا قط فى مستوى المسئولية التى حملوها ومنهم من لم يكن فى مستوى الوطنية . فنجد مثلا الملكة (حتشبسوت) ترشو الكهنة لكى يسبغوا الشرعية على اغتصابها العرش من الملك الشرعى (تحوتمس الثالث) والملك (أخناتون) الذى يزعم المؤرخون الأجانب أنه نبى التوحيد كان شابا نزقا ماجنا مستهترا قصير النظر فارغا . لقد قال هؤلاء المؤرخون انفسهم أن شهواته استعبدته استعبادا . حتى أن عشرات من النساء المصريات والأجنبيات عجزن عن اشباع غريزة الجنس فيه كما قالوا أنه عاشر أخاه (سنخ كارع) معاشرة الأزواج . وكان أمراء الأمصار يستنجدون به فى صد العدوان عن بلادهم فلا ينجدهم واذا حضروا لمقابلته لا يقابلهم ويقول المؤرخون انه كان مشغولا عن شئون الحكم بتراتيله الدينية .

هل كان هذا كل ما احدثه خروج المراة المصرية الى الحياة العامة من آثار فى مجتمع الدولة الحديثة أو الامبراطورية المصرية على حد قول المؤرخين الأجانب ؟

لقد ازدحمت قصور الملوك وعلية القوم بمئات من الأجنبيات لأن جمالهن الثائر وخلاعتهن المثيرة كانت ضرورة لا غنى عنها لاستكمال اسباب الترف الذى استشرى أمره بين الأغنياء ... نرى مثلا الملك (امنحوتب الثالث » يطلب الى أمير (جيزر) أن يرسل اليه أربعين من العذارى يتخيرهن من حسان امارته وأرشقهن قواما

واشترط عليه أن يكن صبيحات الوجوه خاليات من شوائب الجمال . وختم الملك رسالته الى الحاكم بقوله « وسأتخذ من هذه الهـــدية مقياسا لحسن ذوقك كما طلب من (شوماندو) أحد أمراء سوريا عشرين عذراء ومن (عبدى خيبا) امير أورشليم احدى وعشرين فتاة تسلم لرسوله الأمين (شوتا) حتى تصل اليه كما برأها خالقها لم يمسسها بشر ... وهنا يقول الاستاذ سليم حسن فى سفره العظيم « مصر القـــــديمة » :

« فليت شعرى أى شره هذا وليس بالكثير على رجل هذه متعته المحببة أن تقاس أقدار الرجال عنده بما يقدمون اليه من غوان تملأ العين والقلب . فهذا « توشرتا » ملك المتنى يهدى اليه ثلاثين حظية من البيض الرعابيب . كما أن علامة رضاه على العلية أو الأشراف من رعاياه أن يهبهم من سبايا الحرب ما يستهوى القلب من ذوات الدل والخفر . فأصبح الهوى مسيطرا على قلوب الرجـــال وتمتعت الغوانى بمنزلة فريدة وتطلع القوم الى المثل العليا فى الجمال لا لعبادته وشمه ولكن لقطفه وضمه . والناس فى ذلك معذورون لأنهم على دين ملوكهم يسيرون » .

ولقد استغلت تلك المحظيات منزلتهن الفريدة فى جلب ذويهن من رجال ونساء الى مصر واحلالهم فيها مكانا كريما . وكذلك كانت بداية عهد المماليك فى الدولة الاسلامية وكأن التاريخ يعيد نفسه . لقد زحف أقارب أولئك النسوة على وظائف الدولة فى دواوين الحكومة وفى الجيش . وما زالوا يزحفون حتى نحوا الوطنيين عن الوظائف الكبيرة فى الدواوين ووظائف القيادة فى الجيش . وجاء اليوم الذى كان الجيش المصرى فيه مؤلفا من مماليك من أجناس مختلفة سماهم المؤرخون جنودا مرتزقة . وكان الملك « رمسيس الثانى » أول من اعتمد عليهم اعتمادا كبيرا . وأدخل فى الجيش منهم أعدادا وفيرة .

وهكذا نعلم أن حسد المرأة وانبهارها بالأضواء المسلطة على

الرجل قد افسد حياتها الزوجية وامتهن كرامتها . ودفع بالرجل الى مهاوى الغواية ومخاطر الانحراف . ودفع بالبلاد فى النهاية الى قرار سحيق . فقد ضيعت أجيال الدولة الحديثة استقلال البلاد وسلموا حكمها للأجانب الذين استذلوا الشعب قرونا عديدة .

ان المصير الذى انتهت اليه الأسرة فى المجتمعات الغربية يجب ان يثير فزعنا واهتمامنا . فلم يعد هناك سوى « أسرة الصحبة » التى جعل علماء الاجتماع من بيتها مكانا يلتقى فيه أعضـــاء الأسرة للنوم أو طلبا للراحة من عناء العمل . ذلك أنه ما لم ننظم عمليـــة تشغيل المرأة فى ضوء الاحتياجات الملحة للاقتصاد الوطنى والمصلحة العليا للمجتمع الاسلامى الذى ننتسب اليه ــ فان مصير الأسرة عندنا الى تشتت وتمزق لا شك فيهما .

ان شر ما تتعرض له علاقة الرجل بزوجه أن تكون رئاسته لها ولسائر أفراد الأسرة موضع جدل ومناقشة وأن تكون لقمة العيش هى التى تشد المرأة الى زوجها وتخضعها لمشيئته وتدخلها فى طاعته. تلك فكرة غربية وثنية مادية مسرفة فى ماديتها . فالاسلام المعبر عن الفطرة البشرية احسن وأصدق تعبير يلفتنا الى أن علاقة الرجل بزوجه هى الحياة بدونها لا تكون حياة على الأرض ومن ثم كانت حاجـــة الرجل الى المرأة مثل حاجتها اليه تماما . فراحة كل منهما وسعادته لا تتحقق الا فى ظل الحياة الزوجية النظيفة الشريفـــة . ولا ينبغي استغلال ما قضت به الفطرة من تخصيص الرجل لأعمال الكسب وتخصيص المرأة لأعمال الزوجية وتربية الأولاد واقتصاد الأسرة فى تضليل المرأة بمفاهيم باطلة .

ويوم تتخلص المرأة من رئاسة الرجل وهو المتوقع بعد سنوات قليلة اذا لم يبادر مجتمعنا الاسلامى الى ترشيد حركة تحرير المرأة وتحريرها من سيطرة الفكر الغربى فسيكون مصيرها هو نفس مصير

المرأة الغربية التى تقلدها وتحذو حذوها . ولن يمنعها من التردى فى هاوية الرذيلة انتسابها الى عقيدة دينية صحيحة .

ان حركة تحرير المرأة فى مصر قد هوت بمستوى الفكر عند المرأة المثقفة حتى فقدت احساسها بالقيمة العظيمة التى أضفتها القدرة الالهية على انوثتها . وهى القيمة التى تتجلى فى الاهتمام الشديد بالحفاظ على طهرها .

ومع ذلك فان المرأة المثقفة لم تعد تلتفت الى هذه القيمة لأنوثتها بسبب انبهارها بتبرج المرأة الغربية وحرصها الشديد على تقليدها فى عرض هذه الأنوثة عرضا مبتذلا فى الشوارع وأماكن العمل والمحلات والحفلات ودور اللهو الماجن وغير الماجن خروجا بل وتمردا على قول الله تبارك وتعالى :

((قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم ان الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من ابصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن او بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت ايمانهن أو التابعين غير أولى الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء . ولا يضربن بارجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن . وتوبوا الى الله جميعا ايها المؤمنون لعلكم تفلحون)) النور : ٣١ .

((والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن غير متبرجات بزينة وان يستعففن خير لهن والله سميع عليم)) النور : ٦٠ .

((يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ان اتقيتن فلا تخضعن

بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفـــا . وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله . انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا)) الأحزاب : ٣٢ ــ ٣٣ .

((يا أيها النبى قل لأزواجك وبناتك ونســـاء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما)) الأحزاب : ٥٩ .

صدق الله العظيم

* * *

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب

دار العلوم للطباعة
القاهرة: ٨ شارع حسين حجازي (القصر العيني)
ت ٣١٧٤٨٠٥

رقــم الايداع بدار الكتب ٤٠٢٩ — ١٩٨٣

الترقيم الدولى ٦ — ٤٠٠ — ١٤٢ — ٩٧٧